13 me Année No. 634

Lundi - 27 - 8- 1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٨٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليا

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الثالثة عشرة «القاهرة فى يوم الإثنين ١٩ رمضان سنة ١٣٦٤ — ٢٧ أغسطس سنة ١٩٤٥» العدد ٦٣٤

عم يتساءلون؟

للأستاذ أحمد رمزى

مشاكل العالم الجديد — التوازن بين الكتل الثلاث الكبرى التى تسيطر على العالم — نظرة شرقية ...

كان النظام السائد فى عالم الاقتصاد فى المائة سنة الماضية التى أشرنا إليها فى مقالنا السابق، هو نظام الباب المفتوح، وهو يتلخص فى حرية التجارة والتكافؤ فى المعاملة. فالبوارج الحربية التى فتحت موانى الصين واليابان من مختلف الجنسيات، كانت تفرض نظام الباب المفتوح، واعتراف الدول بحماية فرنسا على مراكش المستقلة، كان يتضمن بقاء سياسة الباب المفتوح — وفى مصر كان تساهل الدبلوماسية الأوروبية لبقاء الاحتلال البريطانى يلازمه اشتراط العمل بسياسة الباب المفتوح، وبأخذ الضمانات على الإنجليز «ألا يكون لهم مركز ممتاز»، أو أكثر رعاية من غيرهم. ولذلك بقيت حرية الحكومة المصرية فى زيادة الضرائب الجمركية مقيدة كما كانت طول عهد الدولة العثمانية برغم وجود العامل الجديد، وهو الاحتلال البريطانى.

وقد بقيت سياسة الباب المفتوح معمولا بها طوال القرن الماضى، وكانت إحدى دعامات القوة البريطانية، ولكن حينما تقدمت الدول الأوروبية فى طرق استغلال أراضيها بالمستعمرات، تطورت علاقاتها مع ممتلكاتها إلى إيجاد نوع من الوحدة الاقتصادية بين الدولة الأوروبية وما تملكه فى القارات الأخرى. وأخذت كل وحدة تسير نحو الاستكفاء بما لديها — فالميزان التجارى الذى كان يعتمد على حرية التجارة، خضع لمقدرة كل دولة واستعدادها لتصريف الفائض من منتجاتها فى المستعمرات التى تملكها — كما أن المواد الأولية التى كانت تحت تصرف الدول الأخرى، أخذت تنحصر رويداً رويداً بيد رجال الدولة الحاكمة، وتصبح مع مرور الزمن محتكرة وفوق متناول يد الدول الأخرى.

ولما كان كوكبنا الأرضى محدود المساحة، ولم تبق بقية من أنحاء العالم خالية، لا يرفرف عليها علم أحمر أو أزرق أو أخضر، ولم يبق شعب من الشعوب إلا وخضع لحكم الأوروبيين، كان من الطبيعى أن تتلاقى القوى على حدود مناطق لا تتعداها، وإلا تصادمت مع قوة لا تقل شأناً عنها.

* * *

ولقد انتهى كل هذا إلى تنافس بين الدول الاستعمارية ظهرت بوادره منذ بداية القرن الماضى، فمشكلة فاشودة بين فرنسا وبريطانيا واتفاق سنة ١٩٠٤ بين الدولتين، وهو الذى جعل مراكش من حصة الأولى، وجعل مصر من نصيب الثانية، جاء ليحد من أثر التنافس، وليوجد حلا لمشاكل الاستعمارية بين الدولتين،

كذلك كان اتفاق سنة ١٩٠٧ بين بريطانيا والروسيا ، جاء ليقسم إيران ، وليسد الباب على هذا التلاحق أو الاحتكاك بين قوتين يخشيان التصادم

ولقد وصل هذا التنافس بين المستعمرين إلى مداه قبل قيام الحرب العالمية الأولى ، أى فى سنة ١٩١٤ ، وكثر التحدث عن احتلال المراكز التجارية والمواقع الاستراتيجيكية التى تسيطر على طرق الملاحة والمواصلات

* * *

ولما قامت الحرب العظمى الأولى ، كانت أوروبا فى عنفوان قوتها ومجدها وسلطانها ، وقد ورثت الأرض ومن عليها ، وكانت حرباً قاسية ضروساً تحملتها أوروبا واشتركت المستعمرات فيها بأموالها ورجالها ، وكان الدور الذى لعبته الهند وأفريقيا الشمالية وغيرها هاماً ، فبقدر أهمية الخدمات التى أدتها المستعمرات ، بقدر ما زاد واستوثق اتصال الدولة الحاكمة بالبلاد الخاضعة لسلطانها ونفوذها

* * *

نتساءل بعد ذلك عما كان من أثر الحرب العالمية الأولى ونتائجها ؟

ظهر جلياً بعد الحرب أن أوروبا تحطم فيها أكثر ما خلفته المائة سنة الماضية من أنظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية

فلو قدر لمترنخ الوزير النمساوى أو لغيره من أساطين ومناردة الرجعية الذين خيل إليهم أن الاقدار بيدهم يوماً ما

نعم ، لو قدر لهم رؤية أوروبا عام ١٩٢٠ لصعب عليهم أن يجدوا أثراً من الأنظمة التى فرضوها على الشعوب فى مستهل هذا القرن الماضى

ولكن أوروبا التى تحررت من آثار القرن التاسع عشر ، عرفت ـ لأول مرة ـ عهداً من الفقر المادى والمعنوى ، ودخلت فى طور جديد من المشاكل ، إذ كانت العشرين سنة التى أعقبت الحرب العظمى ، كشريط سينمائى للحوادث ، استمر يعرض علينا مشاكل الحدود والأقليات والثورات المتتابعة ، ومسائل التسليح ومقاعد عصبة الأمم — فكانت ما أثارته الحرب من المشاكل والشكوك والريب والأطماع أضعاف ما عرفته أوروبا قبل قيامها ، بل استمرت هذه المتاعب تعمل فى أوروبا وجراحها بعد لم تلتم ، فكان من الطبيعى أن يلجأ السياسيون لكل الوسائل التى اعتادتها الدبلوماسية الصامتة من قبل بأساليبها الملتوية

ولقد كانت أكبر متاعب أوروبا مسببة من الشعوب الصغيرة التى أوجدتها معاهدات الصلح بدون أن تستند على أسس تاريخية راسخة — فهذه الدول المرتجلة ، أمضت العشرين عاماً ، تتأرجح بين التيارات المختلفة ، فلم تثبت على مبادئ واحدة ، ولم تنهج خطة معينة ، وكان تنازعها على مقاعد عصبة الأمم مضحكا ، كما كان اجتماع مجلس التحالف الصغير المكون من تشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا ورومانيا للتدخل فى الشؤون الداخلية للمجر يدل على مهارة ، ولكن تفكك هذا المجلس وانكماشه أمام المصاعب الكبرى مثل مهاجمة النمسا واحتلال تشيكوسلوفاكيا كان يدعو إلى السخرية والتهكم

فهذه الشعوب والدول الصغرى كانت تسبب الكثير من الضجيج ، ولكنها لم تكن يوماً ما مستقلة فى سياستها ، أو مخلصة للمواثيق والعهود التى قطعتها على نفسها ، بل كانت أكثر الوقت ألعوبة فى أيدى الدول الكبرى التى كانت تحركها

* * *

وفى وسط هذه الفوضى الأوروبية كانت الدول الكبرى تسير بخطوات واسعة نحو تدعيم مستقبلها بالاعتماد على عوامل عالية أو كونية أكثر منها محلية أو أوروبية — وكان التفوق الصناعى والمقدرة الرأسمالية والإنتاج الواسع كلها تمهد لهذا الاتصال أو الارتباط وتسير بالدول الاستعمارية وأراضيها ومناطق نفوذها نحو التركيز الاقتصادى ، أو نحو إيجاد نوع جديد من الكتل الاقتصادية ، أو الوحدات المكونة لمجموعة من الدول والأمم التى إن لم تكن مرتبطة سياسياً ، فهى مرتبطة اقتصادياً ومادياً ، وهذه كانت أول خطوة نحو ظهور الكتل الكبرى التى نراها اليوم

* * *

ولم يكن هذا التوجيه فى حلم أحد من الناس ، بل هو النتيجة الطبيعية للعوامل التى سببها هذا التوسع الاستعمارى الجارف وهذا التطور الذى صحب العالم — وبينما هذه الدول تسير بخطوات واسعة نحو تأكيد سيطرتها معتمدة على تفوقها — أى بينما هذا

التحول فى الحلقة الأولى من حياته — ظهرت المتناقضات والشروخ فى هذه الأنظمة الاقتصادية

فالنظام الرأسمالى الذى بلغ أوجه ، لم يكن يفكر فى شيء من الانهيار والتفكك حينما دهمته أزمة سنة ١٩٣٠ وما بعدها ، ولم تكن هذه الأزمة أوروبية حتى يمكن تلافيها ، بل كانت عالمية ، فهى أشبه الأشياء بالسنوات العجاف التى تحدثت عنها الكتب المقدسة .

كانت هذه الأزمة الواقعة بين حربين امتحاناً قاسياً للأنظمة الاقتصادية ولقوة المقاومة بين الدول الكبرى ، وكانت أكثر من ذلك ، كانت الدافع الديناميكى الطبيعى الذى أقنع الكتلتين الكبيرتين الأنجلوسكسو بأن مستقبل العالم يتطلب تفاهما وتعاوناً وارتباطاً بين أمريكا الأنجلوسكسو وبريطانيا الأنجلوسكسونية

* * *

ويحسن بنا قبل التكلم عن أثر هذه الأزمة أن نعطى فكرة أولى عن أحوال العالم الاقتصادية ، أو نظرة لرجل على ربوة رصد يسجل حوادث تمر أمامه :

كان يبدو للناظر أن الدنيا يغمرها طوفان أو فيض هائل من خيرات الله ، فلم يحدث فى العالم أن وصلت مستخرجات المواد الأولية إلى الملايين من الأطنان من كافة الأصناف التى وصلت إليها فى العشر سنوات الواقعة بين ١٩٢٠ — ١٩٣٠ وما يقال عن المواد الأولية ، يقال عن المنتجات الزراعية والصناعية ، ولكن يقابل هذا الفيض من الخيرات حالة أخرى بين سكان الأرض : فقد ذكرنا فى البحث السابق كيف ازداد عدد سكان المستعمرات . وكيف أصبح ملايين من الناس يسكنون جهات لم تكن مسكونة ومأهولة . وهذا القسم من الإنسانية امتاز بشيء واحد اسمه « الحرمان » ، أى أن الفقر والفاقة ، وأحياناً المجاعات والأوبئة اختصت بأجزاء من الإنسانية قد تقرب من نصف المجموع الآخر إن لم تزد عليه

* * *

فى الوقت الذى كانت فيه ثروات العالم وخاماته تنتقل بانتظام على البواخر بين القارات ، وفى الوقت الذى وصل فيه استغلال الشعوب الأسيوية والأفريقية بل والأمريكية إلى درجة لم تعرف من قبل — كان سكان هذه المناطق أو غالبيتهم لا يصيبهم سوى النزر اليسير إن لم يكن أقل من اليسير من الفيض الذى تخرجه أراضى بلادهم ، فهم يصدق فيهم أكثر من غيرهم قول الشاعر العربى :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

ولعل أكبر المتناقضات التى عرفتها البشرية منذ خلق الإنسان على الأرض ، والتى لم يعرفها الحيوان فى حياته قط هو ما يأتى :

إذا كان سكان العالم يقدرون بـ ٢٠٠٠ مليون نسمة ، وإذا أخذنا معدل المستوى فى بلد أسيوى أو أفريقى ، فلا أقل من نصف العدد من هم ونساؤهم وأطفالهم فى حاجة للكساء ، بل يمكن نصفهم عراة ، فى الوقت الذى فيه نصف ، أو قل ربع الإنسانية عار ، كانت ملايين الأطنان أو آلاف الأطنان من القطن الخام يحرق فى مزارعه . لماذا يحرق ؟ من أجل نصف ريال يرتفع به سعر القطن ليدخل فى جيوب المنتجين !

هذه إحدى المتناقضات ، فلننظر إلى مثل آخر :

لا تزال مشكلة الغذاء تشغل العالم ، وهى مشكلة مخيفة إذا علمنا أن عدد سكان مصر فى القرون الوسطى هبط إلى النصف وأحياناً إلى الثلث من أثر هذه المجاعات . أما قلة الغذاء ونقصه ، فيعرفها أهل مصر أكثر من غيرهم ، فإذا كانت مشكلة الغذاء نعرفها هنا ، فما رأيك بملايين من بنى آدم فى بعض الجهات لايلقون سوى وجبة واحدة وضئيلة فى اليوم الواحد ، أى مكونة من قليل من الأرز والماء ، فى عالم فيه الإنسان محتاج لشيء من العطف والرحمة ، أو لقليل من الوعى الإنسانى ولشيء من التنظيم والصبر . نعم فى هذا القرن العشرين كانت ملايين من المواد الغذائية التى تصلح لتكون غذاء . أى نعم كانت تحرق فى القاطرات أو البواخر ... لماذا ؟ لكى لا يخسر زارعوها ربع ريال فقط !

* * *

هذه صورة الدنيا وهى لعمر الحق سوداء ، حينما قامت الدعوة لمؤتمر اقتصادى عالى يلتئم فى مدينة لندرة ، ولم يكن اجتماعهم إلا بعد أن توالت النكبات ، وتفاقمت الأزمات ، وشعر الرأسماليون بنقص فى الأموال ، وضعف فى الأنفس ، وإفلاس فى بيوتاتهم ،

فقرروا أن يتجمعوا وأن يتداولوا وأن يتحادثوا ، وأن يراجعوا الأرقام ويقارنوا الإحصائيات ، وكان معهم الخبراء وغير الخبراء ، وما التأم شملهم حتى أخذ كل فريق يكيل الاتهام لغيره ويحمل الأخطاء على كتف سواه !

وتعود بى الذاكرة لبعض ما وعته نفسى : فإنى برغم جهلى بالتفاصيل المملة وعدم إيمانى بعبقرية الاقتصاديين والخبراء ، وعيت ما ذكره بعض غلاة الرجعية فى إذاعتهم : أن بقاء روسيا تحمل وحدها سبع المعمورة قد أخل بالتوازن الاقتصادى العالمى ، فهى السبب الأول للأزمة ؛ وقال آخرون : إن علاج الأزمة هو رفع مستوى الجماعات البشرية وإعطاؤها الفرص لكى تبيع وتشترى ، وكثرت المقترحات وتفرعت اللجان ، ثم توزعت الأعمال ، فكان المؤتمر كسوق قامت ثم انفضت، فقطلم يربح أحد فيها، وخسر فيها العالم كل شيء ، إذ خرج وهو مريض وقد اشتد مرضه ، وتسابقت الدول إلى التسليح ، لأن مؤتمر لندرة لم يحل مشكلة المواد الأولية ، فبقيت المواد الأولية وأصحاب المواد الأولية ، أى سكان البلاد الأصليين ، على الحالة التى وجدهم المؤتمر عليها ، أى ينتظرون تنفيذ أحكام الأقدار فيهم !

* * *

أما الأقدار ، فكانت فى شغل عنهم ، لأن الأقدار تخالف القوانين الطبيعية الملازمة لطبيعة الأشياء . نعم كانت فى شغل عن تقارير المندوبين والخبراء ، كان عملها بسيطاً يتلخص فى نتيجة منطقية : إن الفريق الغالب فى عالم الاقتصاد هو الذى يملك من القوى الإنشائية والدعامات الاقتصادية أكثر من غيره ، وهو الذى يزحزح الضعيف من طريقه وينتهى بأن يجذبه إليه ، فإما أن يندمج فيه أو يزداد ضعفاً على ضعف

وكان أن خطوات التكتل التى بدأت بعد الحرب قد أخذت تسير بسرعة عقب مؤتمر لندرة ، فهولندة والبرتقال أخذت كل منهما تتجه نحو المجموعة التى تلائمها ، وجمهوريات أمريكا الجنوبية أخذت تلتئم فى النظام الاقتصادى للولايات المتحدة . وفى وسط هذا التنازع السلمى أخذت تظهر على العالم قوات متكتلة تختلف قوة وضعفاً وهى :

١ — بريطانيا العظمى وامبراطوريتها وأصدقاؤها وحلفاؤها
٢ — الولايات المتحدة وممتلكاتها وأصدقاؤها وحلفاؤها
٣ — روسيا فى أوروبا وآسيا
٤ — فرنسا وامبراطوريتها تحاول أن تستكنى
٥ — اليابان والشرق الأقصى
٦ — إيطاليا وامبراطوريتها فى المهد

أما بقية العالم ، فاستمر حائراً ينظر إلى المستقبل بأساليب القرن الماضى . ألمانيا تحلم بمستعمراتها ، وأسبانيا تؤمل فى أيام الإرمادا ، وإيطاليا تتحدث عن الامبراطورية الرومانية ، والتشك واليوجوسلاف يحاربون مشروع عودة النمسا والمجر ، وكل بما لديهم فرحون ، حتى دهمتهم الحرب العالمية الثانية ، وسنرى ما كان من أمرها إن شاء الله

(يتبع)	**احمد رمزى**

القنصل العام السابق لمصر بسورية ولبنان

معركة إنسانية خالدة

في أفريقيا الشمالية العربية

للأستاذ توفيق محمد الشاوى

لا شك فى أن جهاد العرب والمسلمين فى سبيل حريتهم وسيادتهم ضد الاستعمار الأوربى فى هذا العصر هو معركة من أروع معارك التاريخ وأبقاها أثراً ، لا لأنها معركة عنيفة جبارة يصلى نارها ملايين من البشر ، ويمتد ميدانها إلى جميع أنحاء الوطن العربى الإسلامى فحسب ، ولكن لأنها معركة فذة فى أسلحتها ، خطيرة فى نتائجها وآثارها . أما أسلحة المستعمرين فهى أسلحة فتاكة مادية ، لا تقتصر على الجيوش وسلاحها الذى يقتل الآمنين المسالمين قبل المجاهدين المحاربين ، ولكنها تشمل « السياسة » بما تستخدمه من أحط الوسائل فى محاربة أخلاق الأمة بالفساد والانحلال ، ووحدتها بالتفريق والشقاق ، وشجاعتها بالقتل والنفى والسجن والتجويع ، وإنسانيتها بمصادرة الحريات وسلب الحقوق وانتهاك الحرمات . وأما هدفهم ، فهو السلب المنظم والسرقة الصريحة باسم التعمير والاستقلال ، والهدم والإفناء باسم « التمدين » و « الإنشاء » .

أما الجانب المشرق فى هذه المعركة الخالدة فهو جهاد العرب والمسلمين وثباتهم فى ميدان الشرف والكفاح فى سبيل أسمى غاية ، فى سبيل الحرية الإنسانية وحقوقهم الطبيعية ، وفى سبيل المبادىء الإنسانية السامية التى تكفل لهم حقوقهم وحرياتهم . وسلاحنا فى ذلك الكفاح هو قوميتنا ومثلنا الروحية العليا التى عوضتنا عن أسلحتهم المادية أسلحة روحية سامية ، هى الإيمان بالحق الذى نكافح من أجله ، وحب الموت والتضحية فى سبيله ، واحتقار للحياة المادية الشهوانية التى تستسيغ الذلة والعبودية ، أسلحة قوية سيكون لها النصر برغم طول الكفاح ، وشدة البلاء ، وكثرة التضحيات .

تأمل هذه الحقائق ناطقة فى معركة إفريقيا الشمالية بين العرب والمستعمرين من الفرنسيين والأسبانيين والإيطاليين وأشباههم ، وخاصة فى الجزائر وشقيقاتها حيث يتكلم الفرنسيون عن « مشكلة » إفريقيا الشمالية ، وكلمة « مشكلة » إنما تدل على أزمة حادة تصيب سياستهم الاستعمارية وفشل خطير يهددها ، فما الذى أصابهم بهذا الفشل ورماهم بتلك الأزمة ؟ لقد صرح أحد زعمائهم فى الجمعية الاستشارية بالحقيقة مستورة ملفوفة حين قال « إن مجهود فرنسا الاستعمارى تعترضه صعوبات « خطيرة » أهمها الوحدة العربية ، والمجاعة ! أما الوحدة العربية فتشير إلى القومية العربية بكل خصائصها وأسسها ، وخاصة أساسها الروحى وهو الدين بمبادئه ومثله العليا التى يتسلح بها المسلمون فى كفاحهم ، فأى اعتراف بقوة هذه الأسلحة و « خطورتها » أبلغ من هذا ؟ ليس ذلك فقط ، ولكن بجانب هذا اعتراف آخر بفشل أسلحتهم الاستعمارية الوحشية التى عبر عنها بكلمة « المجاعة » ، لأن المجاعة هى النتيجة الطبيعية للسياسة الاستعمارية الغاشمة ، والاعتراف بها أبلغ رد على ما يسمونه السياسة الإنشائية والعمل التمدينى الذى قامت به فرنسا والذى انتهى بعد قرن من الزمان بالمجاعة ، لأنه ليس فى حقيقته إلا استغلالا همجياً حقيراً .

ونحن العرب والمسلمون نلمس من هذه الاعترافات بشائر نصرنا فى هذه المعركة الإنسانية الخالدة التى ستكون نقطة التحول فى الحضارة الإنسانية من المبادىء الأوربية المادية الاستغلالية الاستعمارية الهمجية ، إلى مبادىء قوميتنا وحضارتنا الإسلامية الروحية السامية التى عبر عنها أبلغ تعبير عالم الجزائر ورئيس جمعية علمائها المسلمين بقوله : « إن الأمة الجزائرية يجب عليها بحكم دينها أن تحيا من كل من يساكنها حياة الإحسان والخير والرحمة فتحسن وتطالب بالإحسان ، وتبذل الخير والرحمة وتطالب غيرها بالخير والرحمة ، وإذا قامت بواجب حيوى مشترك كان من الإنصاف لها أن تتمتع بالحقوق الحيوية المترتبة على ذلك الواجب ، وأن تساوى غيرها فى الحياة كما ساوته فى الواجب ، مع الاحتفاظ التام بمقوماتها الطبيعية التى هى : الإسلام والعروبة وشخصيتها كأمة مستقلة ، وهذا هو ما تقتضيه قواعد الإنسانية وقوانين العدل والإنصاف ، هذا هو إيماننا العميق بمبادئنا الإنسانية السمحاء ، وهو الذى سيكفل لنا النصر القريب الحاسم ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

توفيق محمد الشاوى
مدرس بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

الفلسفة الإسلامية المتأخرة

للدكتور جواد على

— ٣ —

ترك الملا صدرا طائفة من الطلاب والمتعلمين كان أبرزهم تلميذه الملا محسن فيض الكاشانى وهو محمد بن مرتضى المعروف بمحسن فيض (توفى سنة ١٠٩١ هـ)[١] . درس على الشيخ ماجد بن على بن مرتضى البحرانى المتوفى سنة (١٠٢٨ هـ) والشيخ ماجد عالم مشهور وشاعر معدود تخرجت عليه طائفة من علماء إيران والعراق اشتهر بالفقه والحديث والأصول[٢] . ودرس على الملا صدرا وعلى نفر من العلماء البارزين .

غلبت على الفيض نزعتان النزعة إلى الفلسفة العالية والنزعة إلى التصوف . فدرس كتب الفلاسفة وأصبح فيلسوفاً من كبار الفلاسفة ومارس التصوف حتى أصبح صوفياً من جماعة المتصوفين فاتهم لذلك بنفس التهمة التى اتهم بها أستاذه الملا صدرا من قبل . « فنسب إليه الشيخ على الشهيدى العاملى فى ذيل رسالته فى تحريم الغناء وغيرها كثيراً من الأقاويل الفاسدة والآراء الباطلة العاطلة التى تفوح منها رائحة الكفر »[٣] .

وقد ذهب مذهب أستاذه ابن العربى فى تقديس ابن العربى والثناء عليه والنقل من كتبه[٤] . وهذا ما أهاج رجال الدين عليه . وهو صوفى بالطبع ومشربه يشبه مشرب أبى حامد الغزالى وقد توصل إلى نفس ما توصل إليه هذا العالم الأخلاقى الكبير[٥] ولكنه غالى فى التصوف وفى الدفاع عن عقائد المتصوفة حتى تسمى « بالشيخ والدرويش » وحتى انتسب إلى « القلندرية » . وقال

(١) روضات الجنات ص ٥٤٢ — ٥٤٩ قصص العلماء . رياض العارفين ٢٢٥ — ٢٢٦ Brown. Vol 4 p, 432. مجالس الفصحاء ج ٢ ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) عن الشيخ ماجد راجع روضات ج ٤ ص ٥٤١ .

(٣) راجع رسالة تحريم الغناء . وروضات الجنات ص ٥٤٣ .

(٤) نفس المصادر .

(٥) روضات الجنات ص ٥٤٣ . له ما يزيد على الثمانين كتاباً .

« بوحدة الوجود »[١] . وكتب أكثر كتبه على طريقة المتصوفة والمتفلسفة حتى تلك الكتب التى ألفها فى الفقه والأصول والتفسير[٢] يقول عنه صاحب روضات الجنات « ولاشتهار مذهب التصوف فى ديار العجم وميلهم إليه بل غلوّهم فيه صارت له المرتبة العليا فى زمانه والغاية القصوى فى أوانه وفاق عند الناس جملة أقرانه حتى جاء على أثره شيخنا المجلسى ، فسعى غاية السعى فى سد تلك الشقاشق الفاغرة وإطفاء نائرة تلك البدع البائرة »[٣] .

والمحسن فيض فيلسوف صوفى ، فمن المعقول إذاً أن يكون لسلطان العقل عنده المقام الأول بالنسبة إلى سلطان النقل . على أننا لا نلاحظ ذلك عنده لا فى كتاباته ولا فى تفكيره . نراه يقدم الأخبار على الرأى ويأخذ بالحديث بدلا من الاجتهاد . ويتهجم على « الأصولية » القائلين بمبدأ الاجتهاد فى الفقه وأصوله . وقد كان « إخبارياً صلباً كثير الطعن على المجتهدين ولا سيما فى رسالته سفينة النجاة حتى أنه يفهم منها نسبة جماعة من العلماء إلى الكفر فضلا عن الفسق »[٤] .

والأخبارية على نقيض « الأصولية » تعتقد بالأخبار الواردة عن الرسول والأئمة الاثنى عشر المعصومين على رأى الشيعة الاثنى عشرية وتقدم الخبر مهما كانت درجته على الدليل العقلى وحجتهم فى ذلك أن الاجتهاد رأى والرأى لا يجوز فى الدين ولذلك لم يعترفوا إلا بالكتاب وبالأخبار المروية عن النبى والأئمة واختلفوا عن الأصولية فى درجات الحديث ، أما الأصولية فأخذت بالأدلة الأربعة : الكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل[٥] . وقد رفضت القياس لأن القياس فى نظرها رأى والرأى لا يجوز فى

(١) نفس المصدر Brown p, 432. .

(٢) راجع قائمة كتبه فى المصادر المذكورة وله كتاب « الوافى » فى ١٤ مجلداً وهو جامع الكتب الأربعة فى الحديث . وله كتاب « الصافى » فى تفسير القرآن ويذهب فى التفسير مذهب الأخباريين حيث يكثر من الحديث طبع بطهران سنة ١٢٧٦ راجع عنه شتروتمان فى كتب الأباحية نمرة ١٣

(٣) روضات الجنات ج ٤ ص ٥٤٦ ويلاحظ أن الشيخ على الشهيدى العاملى وهو صاحب هذه الكلمات التى نقلناها عن روضات الجنات من المتحاملين جداً على الفلاسفة والمتصوفة وكان محافظا جداً فى آرائه بالنسبة إلى هؤلاء .

(٤) روضات الجنات ج ٤ ص ٥٤٣ ، ٥ ٥ .

(٥) عن الخلاف بين الأصولية والأخبارية راجع روضات الجنات ج ٤ ص ٥٦٩ حيث تجد الخلاف بالتفصيل و ص ٥٤٤ Horten Akhbatti .

العبادة والدين[1]. ونسب إلى المحسن فيض القول «بوحدة الوجود» وقيل إنه ألف رسالة فى هـذا الموضوع[2] . ولـكنه من جهة أخرى يتحامل على الدراويش والصوفية تحاملا قاسياً وله «مقامات» على طريقة مقامات الحريرى فى وصف حالة زمانه وأوضاعه السياسية وقد تحامل فيها على المتصوفة وأصحاب الطرق تحاملا شديداً يكاد يجعله فى عداد القاومين للصوفية على أنه نفسه من المتصوفة . غير أن تصوفه من قبيل تصوف الملاصدرا بلا ذكر ولا ملابس وعلامات[3] .

ومن الذين تأثروا بمدرسة الملاصـدرا عالم آخر وفيلسوف صوفى هو الملا عبـد الرزاق بن على بن الحسين اللاهيجى المتكلم الشـاعر وصاحب التصانيف فى الحـكمة والـكلام[4] . وكان كالمحسن فيض صهراً للملا صدرا وخليفة من خلفائه فى الفلسفة الأشراقية وله فى هذه الفلسفة كتاب «شرح الهياكل فى حكمة الأشراق» وكتاب «الشوارق فى الحـكمة»[5] تلك الفلسفة التى ارتبطت بالصوفى الشهير السهروردى على الأخص والتى أصبحت ذات لون إسـلامى خاص — والظاهر أنه لم يصـل إلى مرتبة الفلاسفة المتقدمين بدليل ما قاله البعض عنه «من أنه كان قلندراً قبل أن يكون فيلسوفاً»[6] .

أما الحاج ملا هادى السبزوارى (ولد سنة ١٧٩٧/١٧٩٨ م وتوفى سنة ١٢٩٥ هـ) فقد كان آخر رجل من هذه الزمرة وهو شاعر فيلسوف طبعت أكثر كتبه فى إيران . مثل مدرسة الملا صدرا خير تمثيل[7] .

رفض الملا هادى مبدأ «الاتحاد» أى اتحاد الله فى المخلوقات وفرق بين الاتحاد والحلول . فسر فكرة الاتحاد تفسيراً جديداً . إن «عقلى كل» «العقل الـكلى» معناه اتحاد «الموضوع بالمحمول» ويتمثل الله الذى هو «العقل الـكلى» فى «العقل» الذى يشع

(١) نفس المصادر .
(٢) روضات الجنات ص ٥٤٥ وما بعد .
(٣) راجع مقامات المحسن فيض . وروضات الجنات صـ ٥٤٦ .
(٤) Brown Vol 4 p, 435 .
(٥) Brown Vol 4 p, 435 روضات صـ ٣٥٢ — ٣٠٣، ٣ قصص العلمـاء . رياض العـارفين صـ ١٦٥ — ١٦٦ مجمع الفصحاء Donaldson p, 303 .
(٦) Brown Vol 4 p, 435 — 1 أيضـاً Shea an Troyeos, Dabistan. 1843 Vol 1. pp, 140 — 1. كتبه جوهرى مراد . سرماى إمام
(٧) Brown Vol 4 p, 436 .

من نور «المبدأ» أو «العقل الـكلى» فالعقل الـكلى هو «العقل» أو «الـكون» بنفس الوقت . ولـكن ذلك لا يعنى على رأيه بأن الـكون ذاته هو «الله» . ولا يمكن أن يكون الـكون بجملته شيئاً يقابل «العقل الـكلى»[1] .

إن الله بحد ذاته لم يتحد بهذا العالم اتحاداً تاماً ولم يحـل فيه لأن الله مستقل بذاته والـكون مستقل بذاته ولـكنه لا شىء بالنسبة إلى ذات الله . إن الـكون حجاب «Maya» لا يمثل الحقيقة والحقيقة هى الله والله هو أساس المخلوقات ولولاه لـكان الـكون لا شىء — ولـكن الله يرسل نوره على هذا العالم فيشع عليه ويشرق الـكون ولا يكون هنالك «إشراق» لولا «النور» الذى هو الله[2] .

وقد مزج الملا هادى على ما يظهر بين فلسفة الأشراقيين وبين فـكرة «المـايا — Maya» البراهمية وتكوّن من هـذا المزج فلسفته الخاصة . فالـكون على نظرية البراهميين خداع فى حد ذاته يظهر لنا كأنه الستار المنقوش على المرسح الذى يرى الناظر من بعيـد كأنها أشياء واقعية ، وبفضل «المـايا» التى هى إسم آلهة من آلهة البراهميين التى تشرق بالمعارف على العالم تتم معارف الإنسان[3] .

إن النفس الإنسانية واحدة وقديماً قال البراهمة بوجود نفس عامة للعالم من إشعاع تكون نفوس الأفراد[4] .

وقد فسر ابن رشد نظرية أرسطو طاليس عن «النفس الكلية» نفس هـذا التفسير[5] . فمن النفس الـكلية تتشعب النفوس الجزئية . وقد أيد السبزوارى هـذا الرأى وصرح به أن المادة هى التى تتجزأ فى الأفراد أما الروح أو النفس فإنها «كلية» عامة وهى وحدها التى تتصف بهذه الصفة ، صفة العموم[6] .

(انتهى) جواد على

(١) راجع max Harten p, 142 Bektaschijje Jacob 56. 4.
(٢) max Harten p, 142 راجع الفلسفة الأشراقية وفـكرة «المـايا» فى الفلسفة البراهمية .
(٣) عن «المـايا» راجع Smitt Hsnd Book of Pbilosophi. Art. waja. أيضاً النصوص البراهمية .
(٤) Haten p, 142. a'denberg Brahmen Texts 1919 .
(٥) وقد نادى بهـذه الفكرة بعض الفلاسفة المتأخرين أمثال : «باولسن — Paulsen» ، Kulpe وأمثالها .
(٦) Harten p. 142 .

المستقر العقلي لعقيدة التوحيد

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أود قبل كل شيء أن أنبه الأستاذ سيد قطب إلى أني قلت إن الذهن هو أوسع طريق لإثبات عقيدة التوحيد بوجه خاص . وعقيدة التوحيد واحدة من عقائد الإسلام والدين الصحيح عامة ، ولم أقل إنه طريق الإيمان فى الأديان الأخرى التى ليس لها أسس عقلية والتى تدين بها ملايين كثيرة من البشر .

وهذا التوضيح قد يفيدنا فى تحديد نقطة الخلاف وينهى هذا الجدل الذى طال .

وأنا حين رأيت الأستاذ سيد يقول مقالته عن طريقة القرآن فى إثبات عقيدة التوحيد بالمنطق الوجدانى وحده خشيت أن يكون قد اتبع المقالة العامة التى شاعت فى العالم غير الإسلامى - لأن عقائده لا يسعفها الاستدلال العقلى - وانتقلت إلى العالم الإسلامى حديثاً ، وهى أن الدين أمور لا يمكن إثباتها من طريق الفكر والمنطق وإنما من طريق الوجدان والعواطف التى تستمد من خوف المجهول . وطبيعى أن يستتبع ذلك نفرة كثيرين من العلماء والمفكرين أن يسلكوا أنفسهم فى هذا السبيل ، وأن يربأوا بعقولهم أن تأخذ شيئاً من غير طريق الإثبات والحكم العقلى .

وما كان للقرآن وهو يعلم أنه سيجابه هؤلاء أن يغفل هذا الميزان الفكرى ويتجاهله وقد جاء لعصور فيها رشد الإنسان ونضج قواه الفكرية جميعها .

وإذا كان الأستاذ سيد يفهم من الوجدان أنه يعتمد على « الحس والبداهة والحقائق الخالدة » فالخلاف حينئذ يكون بيننا على الاسم ، ولا فرق حينئذ بين المنطق الوجدانى ، والمنطق الذهنى الذى يعتمد هو أيضاً على الحس والبداهة والحقائق الخالدة ، ويكون الاسمان لمسمى واحد . فلا داعى إلى أن نقول إن القرآن لم يعتمد على « الذهن » فى إثبات عقيدة التوحيد .

ثم ننتقل إلى المثال الذى استشهد به الأستاذ سيد على إثبات القرآن لعقيدة التوحيد بلا جدل ذهنى ، والذى بينت ما فيه من ضروب الأدلة الذهنية التى أسماها الصديق « محاولات ذهنية » ووصفها بالتهافت . والمثال هو آيات التوحيد فى سورة الأنبياء .

وقبل كل شيء أحب أن أسأل : هل حين يقول القرآن أو أى قائل لمعارضيه : « قل هاتوا برهانكم » يكون جدله خالياً من الحركة الذهنية ؟ ألا يكون المقام كما قلت سابقاً بهذا الخصوص « مقام جدل كبير يتسع للرد وقرع الحجة بالحجة وتشقيق الدليل وراء الدليل ، وليس مقام تسليم بوجدان عن طريق « تعريض الحس والقلب للأصداء والأضواء » والخطابيات والشعريات والنغمات ؟

أظن أن هذا التحدى بطلب البرهان يكفى لإثبات أن الفكر هنا هو الأداة الأصيلة ، وأن الحركة الذهنية حاضرة لاستعراض القضية وأدلتها .

وقد أغفل الأستاذ سيد استشهادى بهذا المقطع من الآية حينما سرد كلامى تمهيداً للتعقيب عليه ، وما كان له أن يغفله عامداً وهو يعلم ما فيه !

يقول الأستاذ : « إن القرآن كان أعرف بالنفس البشرية من الأستاذ عبد المنعم فلم يسق الأدلة كما ساقها هو ... » .

أما أن القرآن أعرف منى بكل شيء فذلك ما لا جدال فيه . وما زعمت لنفسى غير هذا وما غيرت سياق القرآن ، وإنما شرحت ما فهمته من أدلته شأنى شأن أى مفسر آخر . بل شأنى شأن الأستاذ سيد نفسه حين أباح لنفسه أن يفهم فى هذا الآية كما شاء . ولما اعترضت على فهمه لم أسلك هذا السبيل الذى سلكه هو فى بيان خطئى ، وإنما بينت رأيى وتركته له وللقراء ، ولعلى مخطئ ، وما زعمت لنفسى أنى بهذا التفسير أحدد معانى القرآن وأحمله على ما أريد ، فإنى أعلم أن من إعجاز القرآن أنه يرضى العقول والعصور جميعاً لأنه حجة الله عليها جميعاً ...

ولنأخذ فى سرد اعتراضات الأستاذ والرد عليها :

(ا) يقول الأستاذ فى الاعتراض على قولى : « فالإله [الواحد] هو وحده الذى يخلق ويحيى وينشر الخلائق من الأرض » : [أفلا يعلم أن قضية البعث كانت من القضايا الكبرى التى تولى القرآن إثباتها لهؤلاء القوم . فكيف يجعل منها دليلا على وحدانية الله - ولو كان منطق الذهن الجدلى هو المحكم - بينما هى نفسها موضع جدل طويل ، وليست لإحداها سابقة على الأخرى ، بل هما مظهران لقضية واحدة تثبت بطرفيها أو تتهافت بطرفيها] .

وفى هذا القول ثلاثة مواضع للرد :

١ - أنه زاد كلمة [الواحد] من عنده فقد قلت : « فالإله هو وحده هو الذى يخلق ويحيى وينشر الخلائق » ولم أقل فالإله

الواحد . وفرق واضح بين المعانى مع هذه الكلمة وبدونها ، ولا داعى لشرح هذا الفرق ، ولست أدرى لم يزيد الأستاذ سيد هذه الكلمة هنا، وينقص الجملة الأخرى عند «قل هاتوا برهانكم» ؟

٢ — أنه فهم من كلمة (يُنشرُون) أن الإنشار هو البعث فقط ، وليس الإحياء والخلق بوجه عام بينما المادة تفيد الإحياء عموماً ، ابتداء واستئنافاً ، وحينئذ لا يكون البعث — وهو قضية دينية أخرى تحتاج إلى إثبات — مسوقاً لإثبات قضية التوحيد . وأنا قد وضحت (ينشرون) بهذا المعنى العام حين قلت : « فالإله وحده هو الذى يخلق ويحيى وينشر الخلائق من الأرض ... »

وما كان للقرآن أن يثبت « التوحيد » بالبعث مع أن الأخير لم يثبت بعد ولن يثبت فى هذه الدنيا ولم يره المعارضون حتى يساق كدليل عليهم .

٣ — قول الأستاذ : « وليست لإحداهما (قضيتى التوحيد والبعث) سابقة على الأخرى بل هما مظهران لقضية واحدة تثبت بطرفيها أو تتهافت بطرفيها » قول غريب ! فإن قضية التوحيد وقضية البعث كلتاهما مستقلة عن الأخرى . فبعض الأديان الوثنية الداعية إلى آلهة متعددة يدعو إلى الإيمان بالبعث ومصير آخر ...

وبعض مقالات المؤمنين بالتوحيد لا يحتم البعث على الله بل ترى أن ذلك محض رحمة منه تعالى ومساوقة لحكمته . « كتب ربكم على نفسه الرحمة : ليجمعنكم إلى يوم القيامة ... »

فعقيدة التوحيد هى القضية الأولى فى الإسلام ، يثبتها العقل الكامل مستقلة عما عداها ولا يقبل منها بديلا . وهى قضية لا يعتمد فى إثباتها على شىء غير هذا الكون الموجود الآن الذى يثبت ما فيه من تناسق وانسجام أنه من صنع يد واحدة هى التى خلقت العين فى جوف الرحم باستعداد ترى معه نور الشمس فى السماء حينما تولد، وليس « البعث » من أدوات إثباتها هنا ، لأن له كوناً آخر تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات .

وقضية البعث قضية تتصل بالمنطق الوجدانى كما تتصل بالمنطق العقلى ، لأنها من جهة قضية « سماعية » أتى بها الدين . وأعظم أدواتها هو التعلق المشبوب بالحياة والقيمة السامية للانسان ، وانتظاره دائماً لمصير أكمل يتمتع فيه بالوجود الكامل الذى يرضى ما فيه من آمال السيطرة والكمال والخلود ، وإنصاف الخير من الشر ومجازاة المحسن والمسىء ، ومن جهة أخرى هى قضية عقلية تقتضيها حكمة الله وتنزيهه ، والذى يرى أن الخير جزاؤه فيه والشر جزاؤه فيه فى الدنيا قبل الآخرة لا يرى حتما على الله أن يبعث الناس فى حياة أخرى ليجزيهم ، بل يرى ذلك رحمة منه وتكرماً . وحسب الله فى استحقاقه للعبادة أنه خلقنا من العدم لهذا الوجود ، وأرانا هذا العالم العجيب ، وأدخلنا إلى هذه الدار لحظة سواء كتب لنا الحياة ثانية أم ردنا وزج بنا إلى الفناء المطلق من غير رجعة !

فها نحن نرى أن قضية البعث لون آخر غير لون قضية التوحيد الصارمة التى لا تحتمل هذا الجدل . لأنها تستمد مقدماتها من هذا الكون المحسوس الملموس ومن الطبيعة البشرية المستقيمة التى تستجيب فى يقين واقتناع لهذا الكون الواحد .

فالقول بالتسوية بين القضيتين فى الثبوت أو التهافت قول غريب حقاً ...

(ب) يقول الأستاذ سيد معترضاً على قولى إن التصور البشرى لا يملك أن يجرد الآلهة من صفات الناس فى الخلاف بين الرياسات المتعددة « أفلا يعلم أن القرآن ذاته قد كلف التصور البشرى أن يؤمن بأن الله « ليس كمثله شىء » فكيف كان يكلفه هذا لو لم يكن فى طاقة الإنسان أن يتصوره بوسيلة من الوسائل » .

وهنا أمر واضح فى الفرق بين المسألتين : إذ أننا حين نثبت (الإله الواحد) يجب أن نعتقد أنه ليس كمثله شىء ، وحين نرى أنه لا مانع من تعدد الآلهة نكون بالطبع قد قبلنا جواز أن يكون له مثل وشبيه ، لأن الآلهة المتعددة أمثال وأشباه .

وحين يكلفنا القرآن أن نعتقد أن الله ليس كمثله شىء ، لا يكون قد كلف التصور البشرى أن يتصور الله بوسيلة من الوسائل كما يقول الأستاذ ؛ لأن هذا تكليف باعتقاد سلبى تجريدى مطموس الصور ، والمؤمن العالم ليس فى ذهنه مطلقاً صورة ما عن الله وإلا دخل فى دائرة التشبيه والتجسيم المؤدى حتما إلى الكفر والجهل . وإنما فى ذهنه إثبات الصفات الحسنى لله . استنبطها من هذا الكون البديع ، وقال إن خالقه لا بد متصف بها . أما كيف تتعلق هذه الصفات بذات الله فذلك ما ليس للعقل البشرى سبيل إلى تصوره لأنه محدود رهين بقيود التجسيم والتشبيه ، « وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » .

وإذا رفض الأستاذ سيد تفسيرى لدعوى القرآن بفساد العالم حينما تتعدد الآلهة فكيف يفسرها هو ؟ أيفسرها معتمداً على تلك « الصلة الخفية البديهية التى يعتمد القرآن على إيقاظها فى

الحس كالومض السريع فيؤمن المؤمن ويستريح ! » وإذا كنت أمام غير مؤمن ، فكيف يرى هذا الومض إن لم تضاعفه له حتى يصير شعلا تضىء له السبيل؟ أوعلى الأقل تقيم عليه الحجة عريضة مستعلنة لا لبس فيها ولا خفاء؟

إن المؤمن الوثني المشرك أيضاً مستريح لومض آخر فى وجدانه ، فكيف تقيم عليه الحجة والتذكرة ؟ أليس بالبرهان المحسوس المستمد من استعراض الكون كله بما فيه التجربة الأزلية بفساد الأمور حينما تتعدد الرياسات وتتلاقى الأشباه والأمثال من الآلهة الذين لهم الذكاء والمهارة والقدرة وحبهم لعلو بعضهم على بعض كما يقول القرآن : « ولعلا بعضهم على بعض » ؟

(ح) يقول الأستاذ سيد : « أفلا يرى الأستاذ أن كلامه « فى مسئولية الآلهة » لا يثبت شيئاً ولا ينفيه ؛ فمسئولية الآلهة أمام عبادها هى مسئولية نظرية من جانب واحد لا تحفل بها الآلهة ولا تجيب سائليها وكثير من الناس يحاكم الله مثلها ... »

كأن الأستاذ سيدفرض جدلا أن هناك آلهة أخرى فوق تناول الإنسان لها بالمسئولية ، وفرض أنها فى مستوى من القدرة والعقل لا يمكن الإنسان من محاكمتها ، ولذلك رتب اعتراضه على ما قلته ...

ولكن الأمر غير هذا فى الواقع : فالآلهة التى عبدها أكثر البشر ، وخصوصاً العرب آلهة كانت فى متناول أيدى الناس يخلقونها بأيديهم ويسألونها عن قرب ويحاكمونها وقد يأكلونها وقد يضربونها ويجعلونها جذاذاً وقد يصلبونها إذا كانت من البشر الخ . فهى كما قلت تقع عليها التبعة والدينونة « أتعبدون ما تنحتون » « كانا يأكلان الطعام » . أما الله تعالى فلا تقع عليه المسئولية حتى لو وجهت إليه لأن هؤلاء الحسيين يرون الآلهة المجسمات المزعومة ، فيحاكمونها ولا يستطيعون أن يحاكموه تعالى ويسألوه لأنهم لا يرونه ولا يدركونه ولا يحيطون به فهم يحسون أمامه أنهم أمام فراغ مطلق لا يقبض عليه !

والجدل القرآنى هنا يخاطب تلك الحلوم البشرية الصغيرة الطفلية التى لا تحيط فكراً بما تقدم عليه ، ولا بد له أن يذكرها بصغاراتها وضآلة تفكيرها فى معاملتها لآلهتها .

(د) أما اعتراض الأستاذ على الدليل التاريخى فى (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) بأن القوم لم يؤمنوا بذكر من معه وذكر من قبله حتى يحاسبوا به . فأقول رداً عليه : إن الدليل التاريخى قد لا يخضع للمنطق العقلى ، وإيراده للاستدلال به يكون لاستيفاء ضروب الأدلة واستيفاء الحالات السلبية التى تستعرض لإثبات قضية إيجابية . .

فالرسول يقول للمشركين : ما كنت بدعاً من الرسل حينما أدعوكم إلى الوحدانية . ولستم أنتم معتمدين على كتاب منير أو أثارة من علم فى دعواكم تعدد الآلهة . ولو كان فى رسالات هؤلاء الرسل الذين يدين لهم العالم المتمدن حولكم ما يفيد تعدد الآلهة ، إذاً لكان لكم عذركم فى اعتناق التعدد . فأنتم لا تتبعون إلا الهوى والظن والجهالة . فسواء أكانوا مؤمنين بذكر من معه وذكر من قبله ، أم لم يكونوا مؤمنين فإن الدليل التاريخى قد قام على أنهم لا يعتمدون فى التعدد على شىء محترم لدى موازين الآراء والمعتقدات التى كانت فى العالم المتحضر حولهم . ولا يطعن فى صحة الدليل أن المعارض لا يؤمن به ما دام عدم إيمانه بغير دليل

وقد كان يصح الاعتراض السابق من الأستاذ سيد على هذا الدليل لو لم يسبقه الدليل الاستقرائى والدليل التطبيقى اللذان هما جماع القياس الذهنى فى إثبات صلب هذه القضية بالحكم والتمييز والإدراك . ولكنه أتى بعدهما وبعد الدليل العملى ، فكان إيراده للاستيفاء الذى يسد مسالك الجدل على المعارضين .

ولست أدرى ما الذى يستطيع أن يقوله الأستاذ فى تفسير هذه الآيات غير ما قلت ؟ أيقول : « إنها شىء يتصل بالفطرة على استقامتها فتؤمن بالوجه الواحد الصحيح منها إيمان اقتناع وتسليم بدون أسباب وتعليل ؟ .

أم يكون القرآن قد ساقها هكذا اعتباطاً فاستشهد بالبعث على قضية التوحيد وهو لا يعلم أن البعث نفسه محتاج إلى إثبات قبل الاستشهاد به ؟ ! ويكون قد قال « لفسدتا » هكذا مع أنه يعلم أن الآلهة عقلاء هادئون متعاونون لا يختلفون فيفسدوا العالم بخلافهم ! ؟ ويقول : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » مع أنه يعلم أن مسئولية الآلهة أمام عبادها هى مسئولية نظرية من جانب واحد لا تحفل بها الآلهة وكثير من الناس يحاكم الله مثلها ! فهو أيضاً مسئول وأنه ذكرها للتقرير « وللتأثير الوجدانى » فقط ! فهى دعوى بغير دليل ، وتقرير لا يقره الواقع ! وهو يقول : « هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » فيحاكم المعددين إلى ما لم يؤمنوا به فيكون فى هذا مغالطة أو غفلة ؟ !

الحق أننى لست أدرى : أيعترض الأستاذ سيد على أقوالى أنا التى ما عدوت بها شرح ما يستفاد من هذه الآيات ولم أغير

على هامش «مادت الشام»

دموع ... ودموع !

يا أيها العرب جميعاً !
خلدوا (يوم ٢٤ تموز) ، فانه كان
لنا يوم البؤس ، وإنه كان لنا يوم النعيم !

للأستاذ على الطنطاوى

كنت تلميذاً فى الصف الأدنى من المدرسة الثانوية ، وكان لى رفاق لهم على حداثة أسنانهم قلوب فيها إيمان وفيها حماسة وفيها وطنية ، وكنا نحس وقد ولى حكم الأتراك ، وغاب عنا شبح الذعر والهول : جمال باشا ... واختفت المشانق ، وبطل الهمس ، والتلفت كلما ذكر هذا الإسم المرعب ، وجاء الشريف فيصل وجاءت معه الأفراح ، وقامت الأعراس ، ودقت طبول البشائر... كنا نحس أننا نعيش فى دنيا من الأحلام ، فى أيام كلها أعياد ، وكنا إذ نجول كل خميس فى المدينة ننشد (مرسليز العرب) :

أيهـا المولى العظيم فخر كل العرب
ملـكك الملك الفخيم ملك جدك النبـى

فيردده معنا التجار فى دكاكينهم ، والباعة من وراء دوابهم ، والمارة فى دروبهم ، وتردده منازل دمشق ودورها ، ومساجدها وقصورها ، وقلعتها وسـورها ، وتردده الأرض والسماء ... أو هكذا كان يخيل إلينا ، فيشد هذا الخيال من عزائمنا ، فننتفخ ونتطاول ، ونمد أصواتنا ونقويها لنشعر أنفسنا أننا صرنا رجالا ، وصرنا جنداً كالرجال الذين كنا نراهم يصرخون فى المظاهرات ويلوحون بالسيوف والبنادق ، ويطلقون النار من مسدساتهم كلما أخذت منهم الحماسة وهزهم الطرب ، بعد أن مضت علينا أيام ما كنا نرى فيها فى دمشق رجلا إلا فاراً من الجيش مختبئاً يمشى مشية المذعور ، يخاف أن يلمحه رسول الموت (أبولبادة) فيقول له الكلمة التى حفظناها ، ونحن صغار لا ندرى معناها ، ولكنا ندرى أنها كانت تخيف وترعب ، ويصفر منها الوجه ، وترتجف الاضلاع ، كلمة : (نرده وثيقة) ؟

* * *

وإنا لسادرون فى أفراحنا ، ممعنون فى مسراتنا ، مزهوون باستقلالنا ، وإذا بنا نسمع الصريخ يصرخ فى الحى ، ونرى الخطباء يقومون فى الأسواق ينذرون الناس خطباً داهماً ، وشراً مقبلا ، ولم ندر نحن الفتية الصغار ما ذا جرى ؛ فسألنا : هل عاد جمال باشا ؟ هل رجعت مشانقه ؟ قالوا : لا ، جاء ما هو شر منه وأمر ، غورو ؛ قلنا : وما غورو ؟ قالوا : الأعور ... فاعتقدنا أنه الأعور الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان !

بها سياق القرآن ، أم يعترض على القرآن ذاته !؟

وكأنه يريد أن يأخذ ما فى هذه الآيات فى سهولة ويسر واقتناع وتسليم بدون فكر ومناقشة لأنه يراها لا تنهض ولا تستقيم على الفكر والجدل والمناقشة !

ولست أدرى ما هو « الوجه الواحد الصحيح » الذى تؤمن به النفس فى هذه الآيات إيمان اقتناع وتسليم ، وترفض بعده الأوجه المنطقية الزائفة ؟

أيكون القرآن قد عجز عن إقامة دليل ذهنى واحد على أكبر قضية من قضاياه ، قضية التوحيد ؟ !

ولست أدرى لم يسلك الأستاذ سيد الإسلام مع غيره من الأديان موحدة ووثنية ومعددة فى تلك الطريق التى ليس فيها هدى من نور العقل ، مع أن الفرض أنه يعلم أن القرآن له تفرد خاص وأنه لو لم يكن ديناً موحى به لكان المذهب العقلى الطبيعى الوحيد الذى يثبت الموجود الواحد الكامل الأزلى الأبدى كما أثبته « كانت » ونوه به الأستاذ الكبير العقاد فى كتابه «عبقرية محمد» وكما قرره فى كتابه الأخير (فى بيتى) الملخص لفلسفته وآرائه ؟

وبعد فإنه ليس وراء ما وضعنا القرآن عليه من أعماق الكون مستقر آخر يصح أن نتعمق إليه ونستقر عليه .

وليس مذهب هناك من مذاهب الفكر الخالص يستطيع أن يأخذنا إلى غير ما أخذنا به القرآن فى الطبيعة وما بعد الطبيعة . إنه أحال كل قضايا الإلهية وكلاءتها إلى قوة الحكم العقلى وحده . فكان لقاء بديع بين الدين والعقل ، وهو لقاء تحتاجه البشرية مسيس الاحتياج .

عبد المنعم خلاف

ورأينا الدنيا تقوم وتقعد ، ففى كل مكان حشد ، وعلى كل منبر خطيب ، وضجت الشوارع بالناس ، ولم نكن نفهم ما يجرى من حولنا ، وإن كنا نسعى فى أعقاب الناس متسائلين مشاركين ما استطعنا ، ثم رأينا الجموع تمضى إلى النادى العربى ...

النادى العربى الذى كان مثوى الوطنية ، وكان لنا نحن الصغار المنار الهادى ، من خطبه تعلمنا الخطب ، ومن بيانه قبسنا البيان ، ومن رجاله عرفنا الرجال ، هذا النادى الذى خان أهله عهده ، وهدروا مجده ، وقعدوا به بعد العز ، ونسوه بعد أن كان هو الذى يذكرهم أوطانهم ، فغدا ويا خجلتاه حانة ، أو شيئاً يشبه الحانة ، يقال له شهر زاد !

مضت الجموع إلى النادى يموج بعضها فى بعض ، ومضينا نتبعهم ، حتى إذا وقفوا أطل عليهم من شرفته أخطب خطيب عرفته ، وأطلقه لساناً ، وأشرفه بياناً ، وأشده على القلوب سلطاناً شيخنا وأستاذنا الشيخ عبد الرحمن سلام البيروتى الشاعر الفقيه رحمه الله وسيّر فى الناس طيّبةً ذكراه ، أطل على بحر من البشر يزخر بأقوام برزوا للموت ، يدفعون المنبر عن الحى ، ويحمون الذمار ، فامتلأ بهم ما بين المستشفى العسكرى ، ومحطة الحجاز ، وميدان الشهداء ، وحديقة الأمة ، ولم يبق فى تلك الرحاب كلها موطئ قدم ، أطل فلما رأى الناس استعبر وبكى ، وخطب خطبة إذا قلت قد زلزلت القلوب أكون قد أقللت ، وإن قلت ألهبت النفوس لا أكون قد بلغت ، خطبة لو كانت بلاغة بشر معجزة لكانت من معجزات البلاغة ، خطبة ما سمعت مثلها ، وقد سمعت ملوك القول ، وفرسان المنابر ، حملتنى هذه الخطبة إلى آفاق المستقبل ، فنسيت أنى تلميذ صغير ، ورأيتنى رجلا ، ثم صبت البطولة فى أعصابى ، فأحسست أنى كفو لغورو ، وجيشه العادى أرده وحدى ، وكبرت فى نفسى حتى صغر هذا الأعور الدجال ، الذى خافوه وخوفونا منه ، فلم يعد شيئاً ، وإنى لا أزال أحفظ منها قوله عليه رحمة الله ، وقد سكت لحظة وهو يخطب ، وسكت الناس حتى لو أنك ألقيت إبرة على بساط لسمعت لها صوتاً ، ثم ولى وجهه تلقاء المغرب ، وصرخ من قلبه الكبير صرخة لا تزال إلى اليوم تدوى فى مسمعى : « غورو ! لن تدخلها إلا على هذه الأجساد » ! وأعقبها صرخة أخرى ، تقلقل لها الفلك ، ورجف السكون ، تكبيرة واحدة انبعثت من أربعين ألف حنجرة مؤمنة !

ومضى الناس قدماً إلى ميسلون !

أما نحن فمضينا إلى بيوتنا ، فما كان فينا من بلغ سن القتال .

* * *

ولم يكن إلا يوم وبعض يوم حتى رأينا الدنيا تتبدل غير الدنيا وأبصرنا كل شىء قد تغير ، وإذا الناس فى جمود كأنهم فى مأتم ، وإذا الخطباء الذين كانوا ملء الأسماع والأبصار قد اختفوا ، وإذا الأعلام ذوات الألوان الأربعة قد طويت ، وإذا فيصل الذى كنا نهتف باسمه ونعتز به ، ويشعر كل واحد منا أنه يملك فيه ملكا إذ يكون له مَلكا ، قد سافر وخلا منه قصره فى (العفيف) ، فاحتله عدوه ، ونام فيه على فرشه ، واستوى على عرشه ، فخرنا وسألنا : ما ذا جرى يا ويحكم حتى انهار الصرح فى يوم واحد ، وضاع البِشر ، وتبدلت الدنيا ، قالوا : اذهبوا لا تسألوا ، إننا خسرنا ، ورجعنا من (ميسلون) ، وقد خلفنا فيها استقلالنا الوليد ، وقائدنا الشهيد ، وصارت الغلبة لهذا العادى العاتى الذى اقتحم علينا البلد اقتحام الغاصب ، غورو ! قلنا : الأعور الدجال ؟ قالوا : اسكتوا ، اسكتوا ، لا يسمعكم أحد

وذهبنا نستطلع حقيقة الخبر ، فقادتنا الخطا إلى (الثكنة الحميدية) ، فوجدنا عندها جنداً غرباء عنا ، سوداً برابرة ، وسمراً مغاربة ، وشقراً فرنسيين ، وإذا هم يخفضون علمنا ، ويلقونه ، ويرفعون علماً فيه ثلاثة ألوان ... وتلفت فإذا رجال منا واقفون ورائى ، ودموعهم تسيل على خدودهم فى صمت وحرقة وألم خفى يأكل الأكباد ، وكان ذلك يوم ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ ، وكانت تلك هى (الدموع) الأولى !

* * *

ومر ربع قرن ، خمس وعشرون سنة كاملة لا تنقص يوماً ولا تزيد يوماً ، حملنا فيها ألوان الأذى ، وذقنا فيها الموت من كل طبق ، وعلى كل خوان ، ورأينا النار تأكل دورنا ، والقنابل تهدم على رؤوسنا منازلنا ، فتهدمت بيوت من أبهى وأغلى وأحلى بيوت دمشق ، وقضى فتية من أجمل وأكمل وأنبل فتيتها ، وأبصرنا أياماً سودا ، ومصائب شدادا ، ولكنا ما جبنا ولاخفنا ، وكنا عزلا أقلة ، وكانت قريعتنا فرنسا القوية العظيمة ذات الحول والطول ، فقارعنا فرنسا ، ولقينا بصدورنا الرصاص ، وهجمنا بالخناجر على الدبابات ، وقابلنا بالحجارة الرشاشات ، وصبرنا فانتصرنا

وكان يوم ٢٤ تموز سنة ١٩٤٥ ، ورأيت بعينى العلم ذا الألوان الأربعة يرتفع مرة ثانية على (الثكنة الحميدية) فى دمشق ، ورأيت

رجالا يبكون ، ولكنهم يبكون هذه المرة من الفرح ، وكانت تلك هى (الدموع) الأخرى !

***

اللهم لك الحمد أن أحييتنى حتى رأيت هذا المشهد ، اللهم لك الحمد فما أبالى بعد اليوم أن أموت ، لقد أبصرت وطنى حراً مستقلا له راية ترفرف ، وعلم يخفق ، وجيش كان عليه فصار له ، وجند كانوا يحاربونه فصاروا يحمونه ، لقد غدوْت الآن أقدر أن أقول مباهياً مفاخراً : إن لى وطناً !

اللهم علم قومى كيف يحفظون استقلالهم ، وسدد خطاهم نحو وحدتهم ، التى لا حياة لهم إلا بها ، ولا اعتماد بعد الله إلا عليها !

اللهم وارحم أولئك الأبطال الذين سقوا بدمائهم هذه النبتة الكريمة حتى صارت دوحة ، شهداء الاستقلال من لدن يوسف العظمة شهيد ميسلون ، إلى حسن الخراط شهيد الغوطة ، إلى أخى ورفيق مدرستى شهيد الواجب ، الطبيب مسلم البارودى ، الذى أقبل أمس يسعف الجرحى من أبناء الوطن ، فقتله أعداء الوطن ... رحمة الله على الجميع

على الطنطاوى

فى بيـــتى ...

أهدت كتب العقاد

للأستاذ عبده حسن الزيات

هذه سياحة فى مكان واحد تحققت فيها وحدات « أرسطو » الثلاث فلم نتجاوز بيت أستاذنا العقاد ، ولم نَعْدُ شطراً معيناً من نهار ، وانحصر نظرنا فى مشهد واحد هو مشهد الحوار بين العقاد وصاحبه ، فجاءت سياحة فريدة فى بابها وكأنما حسب المؤلف أن تحتاج إلى دفاع فقال : « إن السياحة ياصاحبى لها حجتها الناهضة فما هى بحاجة منا إلى حجة جديدة . ولكن المكث فى المكان الواحد أيضاً له حجته التى تضارع حجة السياحة ولا تقصر عن شأوها ، فاذا كانت مشاهدة الأمصار ومداولة الديار تعلمنا الحكمة وتبصرنا بألوان الحياة فاعلم ياصاحبى أننى لا أعرف شيئاً ينفذ بنا إلى حقائق الآمال والمخاوف ، ومواطن الأفراح والأحزان ، كراسنا لها فى المكان الواحد الذى يقل فيه التغيير » .

ولكنها فى الواقع لم تكن محتاجة إلى هـذا الدفاع فهى سياحة حقيقية فى معارض الآراء والفلسفات ومسارح الأذهان ومحافل الموسيقى ، ومواقع المذاهب ، ومعانى البطولة ، ومجالى الشعر ، ومغانى الصور . ولم يكن العقاد فيها سائحاً بقدر ما كان ملاحاً وأستاذاً فى جامعة من هذه الجامعات التى حدثونا أن السفينة جدرانها ، والأفق العريض سبّورتها ، وأمواج البحور مدرّجاتها ؛ رحلة دسمة زاخرة بالمشاهد لا أدرى كيف استطاع هذا النوتى الماهر أن يطويها فى هذا الزمن القصير وهو ١٣٢ صفحة من ورق « اقرأ » ، وذلك فى طمأنينة مريحة لم تشعر السَّفْر بدوار ولا تركتهم يحسون إحساس المعجّل عن التقصى وملء النفس من روائع الجزر والمرافئ .

* * *

فى هذه الرحلة أو فى هذا الكتيب تعرض على القارئ أمور كثيرة منها : النور والتملى فيه وسيلة وغاية ، الروح والمادة والشأن العملى لبحوث ما وراء الطبيعة ، فلسفة النسك ، مذاهب السخط والتشاؤم وبيان ما فيها من هدم وبناء ، نقد المذاهب الشيوعية والنازية والفاشية ، الموسيقى وتصوير المعانى والنسبة بين الموسيقى الشرقية والغربية ، آداب الطرب ، الموازنة بين عظماء الفنون وعظماء الدعوات العملية ، الموازنة بين جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وسعد زغلول ، فلسفة التغذية وعلاقة الأطعمة برقى الأمم ، شرح بعض الصور العالمية مثل « شالومة » للفرنسى روسيير و « الزهرة » للأسبانى فلاسكيه ، الفنان والعصبية القومية ، وحدة الخلق وتلاحم سلسلة المخلوقات ، البومة وشهرة الشؤم ، ابن الرومى ونحسه ، تقدير الموهبة التصويرية فى شعره ، الإلمام بصور بعض المصورين المصريين المحدثين ، تقدير القصة وبيان مكانها بين سائر ألوان الأدب ، السيكولوجية والقصة ، الشيوعية والقصة ، التماثيل والأخلاق الخ .

* * *

وقد كنت أحب أن أعرض رأى المؤلف فى هـذه الامور جميعاً ولكنه عمل فوق طاقة نقد قصير معجل فحسبى أن أسجل بعض الخواطر التى قامت فى نفسى إثر القراءتين الأولى والثانية لهذا الكتاب النافع الممتع .

— ١ —

تجلت ملـكات العقاد الأصيلة أو تجلى كثير منها ، فى هـذا الـكتيب بصورة أخاذة رائعة ؛ وإنى أصارح القارىء أنى سألت نفسى هل انطلق قلم العقاد على سجيته أو رسم له صاحبه رسماً معيناً واختط شرعة وبذل بعض الجهد لتحقيق هـذه الغاية ؟ تساءلت ولم أقطع بجواب لأنى حين رأيت الشعر المنثور الترقرق يزكى الفرض الأول ، رأيت الجـدل العلمى الدقيق المستند إلى الحجج المنطقية والمادية يؤيد الفرض الثانى :

نعمت بهذا الشعر المنثور المؤثر فى مطلع الـكتاب :

«قلت لك يا صاحبى إننى أحب مدينة الشمس لأننى أحب النور أحبه صافياً وأحبـه مزيجاً ؛ وأحبـه مجتمعاً وأحبه موزعاً ، وأحبه مخزوناً كما يخزن فى الجواهر ، وأحبه مباحاً كما يباح على الأزاهر ، وأحبه فى العيون وأحبه من العيون ، وأحبه إلى العيون !

ويوم سكنت فى هـذا المـكان ، ونظرت من هذه النافذة ، أعجبنى أننى أفتحها فلا أرى منها إلا النور ... والفضاء .

والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور .

وكيف يكون فضاء ما يملأ العينين ويملأ الروح ويصل الأرض بالسماء ؟

قلت لك يا صاحبى إننى أحببت النور فسكنت فى مدينة النور!

فإننى لا أحبه لأنه يرينى الدنيا وما فيها أو لأنه هو واسطة الرؤية وأداتها ، ولـكننى أحبه لأراه ولو لم أر شيئاً من الأشياء .

وقديماً كنت أقول إن الأرواح تخف فى النور كما تخف الأجساد فى الماء ، كأنما هى تسبح وتطفو عليه » . ثم نعمت واغرورقت نفسى رقة لقوله فى ختام رحلته :

« إذا وجل القلب فهذا الـكرسى يعلمنى أن الخوف عبث وأن الذى أخافه قد يخطئنى ويسبقه إلى الذى أرجوه ، فـكم من مرة جلست عليه أطيل النظر فى أعقاب الأمور وأقلب الظنون فى كل وجه من الوجوه ثم جاء الوقت المحذور ولم يجىء معه ما حذرناه !

وإذا تقطعت النفس حسرات على نعمة من نعم العيش فهذه الشرفة تقول لى : بل انتظر طويلا أو قصيراً فسنرى كما رأينا وسنعلم كما علمنا أنك ستعيش بغير هذه النعمة التى كنت تقرنها بالحياة .

... وهـذا المـسكن قد صعدت سلالمه ثلاثاً ثلاثاً ثم صعدتها اثنتين اثنتين ثم أصعده درجة درجة على غير عجلة ولا اكتراث ، وهذا المسكن قد نزلت به والشعرات البيض يتوارين فى السواد ، وما زلت أنزل به والشعرات السود يتوارين فى البياض ... »

ولـكن هـذا الشعر المنثور وما استدعاه المقام أحياناً من الاستشهاد بشعر منظوم بعضه من شعر المؤلف القديم ، ليسا إلا « نثارة » وسط ذخائر من المناقشات الحادة والبحوث الجادة تنتظمها دفتا « السفينة » أو دفتا الـكتاب :

انظر إلى هذه المناقشة لما قرره « أرثر بلفور » من نفى الصلة بين عالم المادة وعالم الروح واقرأ هذه المحاجة الدقيقة الصلبة الناعمة :

« إنما ساء فهم المادة والروح معاً من تصور الأقدمين هذه وتلك إذ وضعوهما موضع النقيضين وجعلوا المادة كثافة لا حركة فيها وجعلوا الروح حركة لا كثافة فيها . إنك حين تضرب الأرض بقدمك فتزعم أنك صدمت الحقيقة التى لا تقبل المراء إنما تصدم شيئاً غير الـكثافة أو الجرم الذى يحسب عند بعض الناس وجوداً لا يقبل الإنكار . فإنما الوهم كل الوهم هذه الـكثافة ، وإنما الوجود الحق هو ما وراءها من قوة تصدم القوى فتصدم الحواس . هذه الـكثافة المادية لا شىء يا صاحبى لولا القوة التى تـكمن فى أطوائها ... وإن شئت مصداقاً لذلك فافرض أن يدك التى تقف عند هذه الخشبة قد زادت قوتها ألف ضعف أو عشرة آلاف ثم عد إلى لمس الخشبة بتلك القوة المضاعفة فهل تقف عندها ؟ كلا إنها لا تقف عندها بل تعبرها كما تعبر الماء أو كما تعبر الهواء ، أو تعال إلى الماء والهواء وهما مثال التخلخل فى تلك الـكثافة المادية فادفع الماء بقوة من بعض العيون ... إنك إذن لتضرب به بالسيف القاطع فلا يمضى فيه ... فليست الـكثافة المادية هى الحقيقة التى لا مراء فيها بل القوة هى الحقيقة الـكامنة فى تلك الـكثافة وفى كل مادة ملموسة أو محسوسة » .

ثم نطوى نحو ثلث الـكتاب لنقابل بحثاً أعمق فى الميتافيزيقا وسر الوجود : « إن الفلسفة تعلمنا أن العدم معدوم ، فالموجود موجود . موجود بلا أول ولا آخر لأنك لا تستطيع أن تقول : كان العدم قبله أو يكون العدم بعده ! وموجود بلا نقص ، لأن النقص يعترى الوجود من جانب عدم ولا عدم هناك ... موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص ولا قصور ... والوجود الـكامل الأمثل هو الله »

(البقية فى العدد القادم) عبده حسن الزيات

العلية الاجتماعية

التـــاريخ ... ما هو؟

« إذا أراد العالم أن يكون مؤرخاً ، فعليه أن يكون رجل اجتماع ... »

للأستاذ فؤاد عوض واصف

[بقية ما نشر فى العدد الماضي]

وقد ظهر تأثر التأريخ بهذه النظرية فى عدة كتب لمشاهير المؤرخين ، فعند كوجنوزوفسكى الروسى ارتفاع درجة الكثافة فى سكان أمة ما يرجع إلى نشاط الغريزة الجنسية والعكس بالعكس[١] . وهكذا ترد العلية فى الأحداث التاريخية إلى هذه الغرائز والدوافع . وفى حين ترد نظرية التقليد الأحداث التاريخية إلى النفس الواعية Consciente تردها نظرية الدوافع إلى النفس غير الواعية inconsciente .

غير أن نظرية الدوافع هذه لا تلق كبير تأييد من الأوساط . فقد انتهى علماء الأحياء وعلماء النفس إلى نظرية علمية جديدة تعارض نظرية الدوافع كل المعارضة ونعنى بها « نظرية مرونة الإنسان — The Thcory of human plasticity » . وتبعاً لهذه النظرية الجديدة ، الحياة الروحية والعقلية هى المسيطرة على الغرائز والميول والنزعات وهى الموجهة لها . وقديماً قال ابن باجة فى رسالته « تدبير المتوحد » إن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات بقوة فكرية من شأنها أن تخضع النفس البهيمية لأوامرها فلا تعاندها « والواقع أن اتجاه العلم الحديث فى أيامنا رفض كل الرفض نظريات من شأنها أن تجعل الإنسان عبداً لعامل فسيولوجى أو عامل طبيعى

٤ — النظرية الفسيولوجية : تزعم هذه النظرية وجود اختلافات وراثية بين الأجناس المختلفة ؛ فكل جنس يولد مزوداً بصفات وراثية خاصة به تتحدد الأحداث التاريخية تبعاً لها . وأهم من قال من بهذه النظرية سنيوبوس ch Seghobos من جامعة

(١) محاضرات علم الاجتماع للسنة الثانية قسم الفلسفة بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٤٢ .

السوربون[١] وجوستاف لوبون G. Le Bon[٢] . سنيوبوس يقسم الأجناس البشرية إلى ثلاثة أقسام الأبيض والأسود والأصفر ويقول إن الجنس الأسود لم ينتج أى حضارة فى حين أن الجنس الأبيض أبو الحضارة .

والواقع أن النظرية الفسيولوجية أبعد ما تكون عن النظريات العلمية برغم ادعاء أصحابها[٣] وفى أغلب الأحايين تقوم على نزعات قومية تعصبية .

* * *

تلك هى أهم النظريات العلميـة التى تناولت تفسير الوقائع التاريخية بوجهات نظرها المختلفة ، وقد تبين لنا بوضوح وجلاء أنها أبعد ما تكون عن طبيعة التاريخ نفسه ، ولذلك لم تسلم نظرية منها من وجوه النقد وأثبتت كل نظرية قصورها عن تفسير التاريخ ووقائعه وأحداثه . وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهرت مدرسة جديدة زعم أنصارها أن دراسة العلية فى التاريخ يمكن أن تخضع لمنهج علمى دقيق يجمع بين طائفة من النظريات السابقة وبمقتضاها يكون موقف المؤرخ من تفسير الوقائع التاريخية كموقف عالم الطبيعة من تفسير لوقائع الطبيعية[٤] وقد عرفت هذه المدرسة بالمدرسة المنهجية الحديثة .

وقواعد المدرسة المنهجية حتى أيامنا هذه هى رائد المؤرخين فى أبحاثهم عن علل الوقائع التاريخية ، ومعظم الكتب التاريخية التى تدرس فى المدارس والجامعات موضوعة حسب قواعد هذه المدرسة .

ولكن أحدث الدراسات العلمية قد تبينت فى قواعد المدرسة المنهجية أمرين :

١ — اعتبارها العلية التاريخية كالعلية العلمية .

٢ — قصورها عن إعطاء تفسيرات صحيحة للعلل التاريخية .

أولا : العلية التاريخية تختلف تمام الاختلاف عن العلية العلمية

(١) راجع كتابه «introduction to the Study of History»

(٢) راجع كتابه new history and Social studies : Barnes .

(٣) مقدمة كتاب introduction to the Study of History : Langlois.

(٤) Bulletin de la Société Française de Philosophie ; Sasnde mai 1906.

فالتاريخ يتكون من وقائع حدثت مرة واحدة وإلى الأبد ، فى حين أن العلوم الطبيعية تتكون من وقائع تتكرر باستمرار . والقاعدة الأساسية فى العلوم الطبيعية أن نفس العلة تنتج نفس المعلول :

$\frac{١}{٢}$ + ١ يعطينا دائماً ١ $\frac{١}{٢}$. أما فى التاريخ فنفس العلة لا تتكرر أبداً . فالخلاف بين العلية التاريخية والعلية العلمية ، خلاف ينشق عن طبيعة العلمين المختلفين[(١)] .

ثانياً : إذا كانت المدرسة المنهجية تدعى أنها تعطى تفسيرات صحيحة للوقائع التاريخية لا تقبل النقد ، فإن البحث الدقيق فى كتب المنهجية يكشف عن أخطاء كبيرة وعديدة .

ففى كتاب « التاريخ السياسى لأوربا المعاصرة » لسنيوبوس أحد أعلام المدرسة المنهجية ؛ من الأخطاء ما يجعل المؤرخ الحق يرفض قواعد هذه المدرسة فى البحث التاريخى .

ففى صفحة ٢٥٨ من هذا الكتاب يقول سنيوبوس : « إن جريمة الزنى التى ارتكبها بارنيل مع السيدة أوشيعه كانت علة لتخلخل الطائفة الأرلندية وضعف مركزها فى مجلس النواب » . هذا التعليل خطأ ، فجريمة الزنى فى كثير من المجتمعات لا تحدث ذلك الأثر العظيم الذى أحدثته جريمة بارنيل مع السيدة أوشيعه ، وإنما التعليل الصحيح يرتد إلى الاتجاه الجمعى ضد هذه الجريمة ، هذا الاتجاه هو الذى يفسر الأثر الذى أحدثه بارنيل بجريمته[(٢)] .

وفى صفحة ٣٣ من نفس هذا الكتاب يقول المؤلف : « الثورة الفرنسية بما أثارته من الخوف والفزع فى الطبقات صاحبة الامتيازات ، قد حالت بينها وبين القيام بأى إصلاح خلال ثلاثين عاماً ... » والعلامة سيميان يكشف لنا عن هذا الحكم التعسفى ، فالدراسة الحقيقية للظروف المحيطة بالطبقات صاحبة الامتيازات تجعلنا نتحقق من علل أخرى لعل أقلها أهمية الخوف والفزع . وفى مكان آخر من نفس هذا الكتاب : « إن قيام الصناعات الكبيرة قد ضاعف فى عدد العمال ، وكان نتيجة ذلك أن ازدادت الشقة بعداً بين طبقة الأغنياء والفقراء ... » فهذا التعليل لا يرمز إلى الحقيقة بحال من الأحوال[(١)] .

والأمثلة على أخطاء المنهجية عديدة وهى من ذلك النوع من الأحكام التعسفية البعيدة كل البعد عن روح البحث العلمى ...

* * *

رأينا إذاً إخفاق المدرسة المنهجية فى أبحاثها عن العلل التاريخية . وقد رأينا من قبل إخفاق النظريات الشائعة المختلفة فى توجيه الأبحاث التاريخية . ذلك لأن هذه النظريات المختلفة قد بحثت فى التاريخ قبل أن تبحث عن طبيعة التاريخ ... بحثت فى الوقائع قبل أن تبحث فى طبيعة الوقائع ، ومن هنا كان إخفاق المؤرخين وإخفاق أبحاثهم .

ولو أن المؤرخ عنى بالبحث عن طبيعة التاريخ قبل البحث فى وقائعه ، لوجد أنه الإنسان : هذا الكائن الاجتماعى .

أجل ، إن الحياة الاجتماعية هى وحدها القادرة على تفسير الأحداث التاريخية وهى علة هذه الأحداث . ويرجع تنبه المؤرخين إلى هذه الحقيقة إلى السنوات الأخيرة فقط ، فقد نشر الأستاذ جيدنجز الأمريكى فى سنة ١٩٠٣ رسالة عنوانها : «نظرية فى العلية الاجتماعية » رد فيها التاريخ كله إلى مجال علم الاجتماع . وقد قال فى هذه الرسالة : « إنه إذا كانت الصفات الفردية والخاصة للوقائع التاريخية — وهى المحددة بزمان ومكان — لا تتكرر بل تحدث مرة واحدة وإلى الأبد ، فإن هنالك اطراداً فى بعض العناصر التاريخية العامة . ولما كان العلم يعين بالاطراد والتكرار لأنه لا يستطيع أن يدرس ظاهرة لا تتكرر ، فكذلك التاريخ إذا أراد أن يكون علماً بالمعنى الصحيح فلا بد له من دراسة العناصر العامة المطردة فى الوقائع التاريخية وبعبارة أخرى : إذا أراد العالم أن يكون مؤرخاً فعليه أن يكون رجل اجتماع »[(١)] .

ولئن كان بعض المؤرخين المنهجيين يدافعون عن نظرتهم التقليدية بقولهم : « إن التاريخ علم لا يستطيع أن يتجنب الاتجاه الزمنى وإن الطابع المميز للمعرفة التاريخية هو اتصالها الأساسى بالزمن ، وعلم الاجتماع كسائر العلوم الطبيعية يدرس الوقائع خارج الزمن فلا يمكن رد التاريخ إلى علم الاجتماع »[(٢)] فمن السهل أن نرد على زعم هؤلاء المنهجيين بقولنا : « إن هذه الحقائق الجزئية

(١) نفس المصدر .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .

(١) The hew Hislory and Social • Saènces ; Barnes P. 333 — 334.
(٢) Reason in Politics : K. B. Smellie P. 175

التي يعنون كل العناية بالكشف عنها تظل غامضة وتافهة إذا لم ترتبط بقانون معين يوضحها ويجلو قيمتها »(١) . ومن العجيب حقاً أن أكثر ما يعنى به المؤرخ حتى أيامنا هذه في أبحاثه عن بعض المؤسسات كالمعابد الدينية مثلا ، هو وصف هذه المعابد بأصحابها وهيئاتها ووصف من أمر بإقامتها ... الخ دون أن يعني أقل عناية بالكشف عن القوانين التي يرتبط بها تطور المعابد الدينية والتي وحدها يمكن أن تفسر لنا علة قيام هذه المعابد أو تلك في هذا العصر أو ذاك(٢) . نحن لا ننكر أن البحث في الوقائع الجزئية في التاريخ على جانب عظيم من القيمة العلمية ، ولكننا ننكر كل الإنكار أن هذا البحث وحده يمكن أن يقدم لنا تفسيرات هذه الوقائع الجزئية . فلا بد من أن يلجأ المؤرخ إلى الصفات العامة في الوقائع التاريخية ويستخلص منها القوانين التي يمكنها أن تفسر الوقائع التاريخية ، والتي يمكننا على أساسها أن نجعل من التاريخ علماً . فلا بد أن يلجأ المؤرخ إلى القوانين الاجتماعية وهي العناصر العامة المطردة في الوقائع التاريخية ؛ وبهذا يستطيع أن يقدم لنا حقائق علمية .

ولنفترض أن أمامنا مؤرخا يبحث عن تاريخ الأزمات الاقتصادية ويقف في بحثه عند أزمة فينا سنة ١٨٧٣ والتي بلغت نهايتها العظمى سنة ١٨٧٤ ، فيسترعى التفات المؤرخ في وصفه لهذه الأزمة ازدياد نسبة الانتحار وارتفاع عدد المنتحرين ارتفاعاً كبيراً ، ولنفترض أن هذا المؤرخ من المدرسة المنهجية فإن التعليل الوحيد الذي سيعلل به ازدياد نسبة الانتحار في إبان أزمة فينا هو الفقر والجوع . ولا يكون المؤرخ قد قدم لنا في هذه الحالة إلا أوصافا أبعد ما تكون عن الصحة وعن الطابع العلمي . ذلك لأن الواقع كما يقول العلامة دركيم في كتابه عن الانتحار(٣) هو أن الأزمات الاقتصادية كثيراً ما تنتج تأثيراً عكسياً في نسبة الانتحار كما هو مشاهد في إيرلندا مثلا، فعلى الرغم من هذه الأزمات الاقتصادية التي يعانيها الفلاح الإيرلندي فإنه قلما يقدم على الانتحار . ولو أن هذا المؤرخ الذي قرر أن الفقر الذي أحدثته أزمة فينا سنة ١٨٧٣ هو علة ازدياد نسبة الانتحار ، كان قد درس ظاهرة الانتحار وقوانينها الاجتماعية العامة ، وأبعد نفسه قليلا عن حادث فينا الخاص ، لوجد تفسيراً آخر لازدياد نسبة الانتحار عاماً وليس في حادث فينا الخاص فقط . وهذا التفسير نجده في قانون الانتحار الذي استخلصه العلامة دركيم من دراسته لهذه الظاهرة(١) . وقد ربط بعدة قوانين أخرى . وخلاصة هذا أننا في حالة التاريخ لا يجدينا البحث عن الوقائع إلا بقدر ارتباطها بقوانين عامة .

***

وقد تقدم العلامة سيميان في سنة ١١٠٦ إلى الجمعية الفلسفية الفرنسية برسالته الشهيرة : « العلية في التاريخ » أوضح فيها اتجاه التاريخ الحديث نحو علم الاجتماع . وقد عدت رسالته ثورة في الأبحاث التاريخية وأشاد بها كثيرون من علماء فرنسا في ذلك الحين من أمثال : لاكب وبفوخ ولالاند .

ولقد أراد العلامة سيميان برسالته تلك أن يتقدم بمنهج نظري وعملي في الوقت نفسه . فوضع للأبحاث التاريخية عن العلل أربعة قواعد شكلية تكون بمثابة منهج تطبيقي للمؤرخ الحديث . وقد أراد بهذه القضايا الشكلية أن يجعل من التاريخ فرعاً من فروع علم الاجتماع ؛ فهو يرى أن العلمين يتفقان كل الاتفاق في موضوعهما وطبيعتهما ... ولا بد لنا من أن نعرض لهذه القضايا لأنها المنهج الاجتماعي في الأبحاث التاريخية .

القضية الأولى : « يجب تفسير الواقعة التاريخية في حدود عامة » . أعني أن نربط الواقعة الجزئية بقانون عام يفسرها ؛ فمثلا في وصفنا لبناء معبد ديني ، يجب أن نربط وصفنا هذا بقانون عام يفسر التطور الديني الذي انتهى إلى بناء هذا المعبد ...

القضية الثانية : هي توكيد التفرقة بين العلل والوسائط وتصاغ هكذا : « من بين الأسباب المختلفة لظاهرة تاريخية ، نعتبره علة ذلك السبب الذي يكون مرتبطاً بالظاهرة التاريخية بواسطة الرابطة الأكثر عمومية » . والواقع أن الخلط بين العلل والوسائط شائع في التاريخ إلى أبعد حد فلا يجب أن نعتبر فولتير وروسو ومونتسكيو عللا مباشرة للثورة الفرنسية بما أذاعوه من

(١) Bulletin de la Société Française . . Seance 31 mai 1206

(٢) Ibid .

(٣) راجع كتابه Le Suicide : Emile Durkheim .

(١) وراجع أيضاً : L' annèe Sociologique I P. 397 : Durkheim.

هذا العالم المتغير

للأستاذ فوزي الشتوي

جراحة القلب ومعجزتها

هي معجزة جديدة في عالم الطب . فلم يعد الرصاص الذي يصيب القلب من العوامل التي لا علاج لها . وقد تمت المعجزة خلال الحرب ، وصقلت تجاربها على قلوب الجنود الذين كانوا ينقلون بالعشرات إلى المستشفيات ، وفي قلب كل منهم أو في رئتيه رصاصة أو شظية . كان الطبيب في الماضي يكتفي من مجرد رؤياها بأنه لا أمل في حياة المصاب .

أما الآن فتيسر للأطباء إنقاذ مئات الأرواح التي كان الطب القديم يفقد الأمل في حياتها . وهؤلاء الأفراد الذين استخرجت الأجسام الصلبة من قلوبهم أو من رئاتهم يعيشون في أتم صحة ويواصلون حياتهم كأن رصاصة لم تخترق قلوبهم أو تمزق أنسجة رئاتهم .

وليست معجزة اليوم جراحية في كل تفاصيلها فجزء كبير منها من عمل المريض نفسه ، ومن المعونة التي يلقاها الطبيب من المصاب ذاته . فعند ما تخترق إحدى الرئتين مادة غريبة تتوقف هذه الرئة عن العمل . ويعيش المريض فترة يتنفس برئة واحدة . وهي سنة طبيعية في الإنسان تمنع عنه الإحساس بالألم المبرح .

فإذا أزيل الجسم الغريب من الرئة فواجب المريض أن يتعلم كيف يحرك ذلك الجزء الذي توقف عن أداء عمله . وهي مسألة لا يتيسر لي أو لك إنجازها ، فهي تحتاج إلى بعض المران الذي عرفه الأطباء لتحريك تلك الرئة المضربة عن العمل ، فإن هي إلا فترة حتى يتعلم المصاب كيف يعيدها إلى سابق واجبها .

وعمليات القلب الجراحية من العمليات الدقيقة الشاقة فيتحتم أن يحدد الطبيب مكان الجسم الغريب من القلب تماماً حتى يصل إليه مشرطه ويقبض عليه ملقاطه من أصغر فتحة . ويستلزم هذا أن يجري للمصاب كشف بالأشعة في عدة أوضاع قد تصل إلى العشرة وعلى ضوء هذه الصور يحدد الجراح موقع الجسم الغريب وحجمه بالضبط .

ووصف أحد الكتاب إحدى العمليات التي شاهدها لاستخراج رصاصة من عيار ٣٠ مليمترا من قلب أحد الجنود فأدهشه ما بدا

التعاليم والمبادئ ، وإنما هؤلاء الرجال وسائط فحسب ؛ بحيث أنه إذا لم يكن هؤلاء الرجال قد وجدوا فإنه لمن المؤكد أن وسائط أخرى كانت ستتولد من خميرة الثورة الكامنة في الشعب الفرنسي . فيجب على المؤرخ أن يحترس من الخلط بين العلل والوسائط . والعلل تكون دائماً قوانين عامة .

نتيجة أولى : « يكون من الضروري دائماً تفسير السبب المباشر (العلة) » . أعني أن القضيتين السابقتين ستفرضان على المؤرخ أن يحلل السبب المباشر للواقعة التاريخية تحليلا وقتياً حتى يكون تفسيره تفسيراً علمياً صحيحاً .

نتيجة ثانية : « الوصول في أبحاثنا عن العلل التاريخية إلى قضايا تكون الرابطة بينها صحيحة دائماً » . وهذا ما ينتهي إليه البحث العلمي وهو اكتشاف القوانين الصادقة دائماً .

* * *

تلك هي قواعد سيميان الأربع الشكلية ، وضع اثنتين منها على صورة قضايا واثنتين على صورة نتائج لتأخذ قواعده الطابع العلمي الرياضي .

وبهذه القواعد يكون للمؤرخ منهج عملي في أبحاثه ؛ ويكون موقفه من التاريخ هو موقف العالم الاجتماعي .

* * *

التاريخ : ما هو ؟

سؤال افتتحنا به هذا البحث ؛ والآن نعلم أن التاريخ ليس شيئاً آخر غير الإنسان : هذا الكائن الاجتماعي . ولست أزعم أنني في بحثي هذا – رغم ما كلفني من مشقة – قد أحطت إحاطة تامة بكل تفاصيل هذا الموضوع ، ولكن لعلها محاولة أرجو أن تتيح لي الأيام فرصة مواصلتها لتحقيق تلك الصلة الوثقى بين علم التاريخ وعلم الاجتماع .

فؤاد محمد واصف
ليسانيه في الفلسفة

علية من هدوء وثقة برغم أنه كان يعرف ما سيحدث له فلما نقل إلى غرفة العمليات حقنته الطبيبة المختصة بالمخدر فلم يلبث أن راح فى سبات عميق . وعندئذ أعمل الجراح مبضعه لمدة ساعة ونصف ساعة استخرج خلالها الرصاصة وما صحبها من أنسجة القماش التى غاصت فى القلب معها .

وأتم الجراح عملية التنظيف ثم طهر كل جرح بالبنسلين قبل تضميده وإعادته إلى أصله .

وتلق أطباء آخرون المصاب يزودونه عما يحتاج إليه من دم جديد بدل الذى فقده ويعالجونه بالأكسوجين لكى يفيق وغير ذلك من الوسائل التى تحتفظ بجسمه فى حالة جيدة ، فمن العوامل الهامة أن يتمتع المصاب بحالة نفسية هادئة وقوة بنية تساعده على مغالبة إصابته . فلو توافر هذان العاملان فإن المصاب لا يلزم الفراش أكثر من يوم واحد يسمح له بعده بالتنزه فى الحديقة حتى يتم شفاؤه .

وعندما تنتهى العملية الجراحية تبدأ عملية التنفس ، وقد درب الأطباء عدداً كافياً من الجنود لكى يتولوا تدريب المصابين الجدد فيعلمونهم كيف يوقظون الاجزاء المصابة ويرسلون فيها الحركة والحياة

وتخصص فى عمليات الصدر بكافة أنواعها عدد من الأطباء والطبيبات الأمريكيين تحول إليهم جميع إصاباته فتشغلهم طول وقتهم . وقد مضت عليهم عدة شهور فلم تفشل معهم حالة واحدة بل دخل المستشفى آلاف الجنود الفاقدى الأمل فى الحياة فخرجوا منه ممتلئين بالصحة والعافية .

أما مبدأ أطباء ذلك المستشفى فكما قال الجراح هاركن « كان هدف جراحة الصدر فى الحرب الماضية إنقاذ الأرواح فحسب أما هدفنا ، فهو معرفة أحسن السبل لكى يعود المصابون إلى الحياة وهم على أحسن حال وفى أقصر وقت » .

وعلى ضوء هذا المبدأ سار الأطباء فى تجاربهم ونجحوا فى تأدية واجباتهم دون أن يصيبهم ملل أو كلل وكانت أول واجباتهم رفع الروح المعنوية فى المصابين واستغلال حبهم فى الحياة لكى يصلوا إلى الشفاء من إصاباتهم المميتة ودخلت الجراحة فى مرحلة جديدة وهى جهد المريض نفسه .

تخرج معدتها لتأكل :

من الحيوانات الغريبة نجمة البحر ولكن الأغرب هى الطريقة التى تتغذى بها لأنها لا تأكل بفمها بل تخرج معدتها للحصول على طعامها .

وعند ما تجوع نجمة البحر تزحف فى قاع البحر إلى أن تجد حيوانا يسهل عليها التهامه . ومن هذه الحيوانات المحار بأصدافه القوية . ولكن نجمة البحر تلتف حول الصدفتين ، وتثبت أقدامها بمصاصاتها على كل منها وتجذب الصدفتين لتفتحهما وتلتهم ما فى الداخل . ويصر المحار طبعا على أن لا يأكل ولكن المقاومة ترهقه بعد حوالى ٣٠ دقيقة وتنفتح الصدفتان .

ولنجمة البحر فم ولكنه صغير جدا بالنسبة للمحار فتخرج النجمة معدتها وتدخل فيها لحم المحارة وتتركها خارج فمها لحظة حتى يتيسر للافرازات المعدية تفتيت لحم المحار وتحويله إلى سوائل يسهل تسربها إلى داخل جسم النجمة . وعندئذ تعود معدة النجمة إلى داخل جسمها لتبحث لها عن فريسة أخرى .

لمكافحة السل :

تيسر لأطباء السل سرعة الكشف على مرضاهم بفضل الجهود التى بذلها بعض المهندسين إذ أتاحوا لهم الحصول على ست صور مختلفة للصدر فى الدقيقة الواحدة أى ضعف العدد الذى كان متاحا لهم بالأجهزة القديمة . وبذلك سهل على الوحدة الطبية الواحدة الكشف على ألف مريض كل يوم وفحصه فحصا جيداً .

ولا يعجب القارىء إذا عرف أن السل وانتشاره من الأمراض التى تهدد الدول الغربية . فإن الحرب ونقص الأغذية عرضت أكثر من ٧٠٪ من أفراد الشعوب للاصابة بهذا المرض مما دعا المهتمين بالشئون الصحية إلى اعتبار مكافحة السل من أول أهداف البلاد القومية .

وتتلخص هذه الطريقة فى عكس صور الصدر على لوحة باستخدام عين كهربائية تضبط كمية الضوء المطلوب بطريقة آلية وبحدد التعديل الجديد أيضا زمن عرض اللوحة الحساسة للضوء

أياكان حجم جسم المريض وأياكانت الأجسام الغريبة أو المعتمة داخل صدره .

وتمتاز هذه الطريقة برخصها وكال وضوحها برغم صغر الصور التي تنتج عنها .

تجارب على البنسلين :

توالى الهيئات الطبية في الخارج تجاربها لاستخدام البنسلين في علاج الأمراض أيا كان لونها . وقد أجرى معهد ميو الطبي تجربة جديدة على الأمراض الخطيرة التي تنتقل إلى الإنسان من الحيوان عن طريق الميكروب المعروف باسم انتراكس . وهو من الجراثيم القوية التي لم يفلح في القضاء عليها كثير من العقاقير المعروفة مثل السلفا وسم الميكروب نفسه .

ويحمل هذا الميكروب عادة في فراء الحيوانات ثم ينتقل منها إلى الإنسان فيصيبه بعدة أمراض خطيرة عجز الطب في كثير من الأحوال عن شفائها .

وقد جرب البنسلين على الفيران فوجد أنها تكتسب المناعة ضد الإصابة بأمراض الانتراكس القتالة . وأثبتت التجارب أن الفيران تحتفظ بصحتها تنتبيا إذا حقنت بجرعات قتالة من الانتراكس ثم عولجت بالبنسلين ولو بعد إصابتها بست عشرة ساعة فإن تلقت العلاج سريعاً بعد ساعة واحدة من الإصابة فإن نجاتها تكون أكيدة واستعادتها لصحتها كاملة .

وجرب استخدام البنسلين في علاج الضعفي والالتهاب الرئوي فشفي بعض المصابين بعد عشرة أيام من بدء العلاج .

ولا يعطى البنسلين في هذه الحالة كما هو بل يصحن إلى ذرات متناهية الدقة على ألواح زجاجية . فإن الذرات الكبيرة يتعذر توغلها في أجسام المرضى فلا تصل إلى الميكروبات وتقتلها .

إرسال الخطابات بالكهرباء

اكتشفت إحدى شركات الكهرباء طريقة حديثة لإرسال الخطابات من مدينة إلى أخرى في أقصر وقت وبغير أن تقع عليها عين إنسان لأنها ترسل على الموجات الكهربائية . فعند ما يتناول مكتب البريد الراسل الرسالة يضعها داخل آلة ضاغطة من المطاط ترسل إلى المحطة المرسل إليها علامات بيضاء أو سوداء تعكس بآلات خاصة تحل رموزها وتكون الرسالة الأصلية بالشكل الطبيعي .

وليس لهذه الرسائل غلاف منفرد بل غلافها وخطابها واحد على مثال الأشكال المعروفة الآن التي تطبق وتلصق فتكون الرسالة والخطاب .

وعند ما تصل الرسالة إلى مكتب البريد المختص وتحل رموزها يتولى عامل البريد العادي إيصالها إلى أصحابها . وتمتاز هذه الطريقة عن البريد المصور بأنها لا تحتاج إلى أفلام تطبع وترسل . وهي ليست أيضاً بالراديو المصور لأن أدواتها أقل منه دقة وإن كانت تستعمل في الغالب أكثر نظرياته .

ويتوقع مديرو الشركة التي توصلت إلى هذا الاكتشاف صقلها وتيسير استعمالها في التجارة في أمد قريب حتى تكون عملية الإرسال بسيطة يستطيع الموظف العادي أداءها .

سر حياة النبات

يخطو العلم خطوة جديدة لكشف أسرار الحياة النباتية بدراسة ما يحدث من تطورات داخل البذرة ، ويتولى هذا البحث أحد العامل في جامعة كورنل بمعالجة سر الحياة النباتية بوسائل خاصة تكشف نموها وتغيرها .

وتوصل العلماء خلال دراساتهم من اكتشاف عامل يوقف نمو النبات ويجعله في شبه حالة نوم . وهذا العامل مقيم في الأنسجة التي تغذي الجسم الحي من النبات . وتمكنوا أيضاً من قتل هذا العامل فأدت أبحاثهم إلى نتائج ذات أهمية كبيرة . ففي بعض البذور تيسر لهم الإسراع بإنماء النبات بأن فصلوا العامل الذي يعمل على توقف الإنبات في بعض فترات السنة .

ويعمل هؤلاء العلماء على فحص هذا العامل في مختلف النباتات ، ومدى تأثيره على نموها ، وطرق القضاء عليه بغير أن تتأثر الأجزاء الحية من البذور . وتشمل التجارب التي يؤديها العامل الآن على ٥٠٠ بذرة .

فوزي الشتوي

السراب الثاني

للدكتور ابراهيم ناجي

لاالقوم راحوا بأخبار ولا جاءوا ... ولا لقلبك عن ليلاك أنباء
جفا الربيع ليالينا وغادرها ... وأقفر الروض لا ظل ولا ماء
ياشافى الداء قد أودى بى الداء ... أمَا لذا الظمأ القتال إرواء
ولا لطائر قلب أن يقر ولا ... لمركب فزع فى الشط إرساء !

عندى سماء شتاء غيرُ ممطرة ... سوداء فى جنبات النفس جرداء
هوجاء آونةً خرساء آونةً ... وليس تخدع ظنى وهى خرساء
فكم سجا الليل إلا هامس قلق ... كأنه نفسٌ فى الليل مشّاء
أأنت ناديتِ أم صوتٌ يخيّل لى ؟
فلى إليكِ بأذْنِ الوهم إصغاء
لبيكِ لو عند روحى ما تطير به ... وكيف ينهض بالمجروح إعياء
لمنْ قيامى وبعثى هذه صورٌ ... لا تصطفى وتماثيلٌ وأزياء
ومعرضٌ أجوف المعنى وأسماء ... مذ آذنَتْنا بهذا البين أسماء
يا ليل ! كل نهار ميّت فإذا ... ناديتِ قام كما للبعث إحياء
وليس يبلى نهار فى هواك مضى ... هيهات ينسيه إصباح وإمساء
طاب اللقاء به لاثنين فانفردا ... فتى به سقم بادٍ وحسناء
جمالها توبة الدنيا وغُرتها ... كفارة عن ذنوب الدهر بيضاء
وشعرها الفاحم انسابت جداوله ... تكاد تسطع حسناً وهى سوداء
نامت به خُصلٌ واسترسلت خصل
لها وللعاج خلْفَ الليل إغراء
توهجتْ شمس ذاك اليوم واتقدت
كأنها شعلة فى الأفق حمراء
تفرق الناس حول الشط واجتمعوا
لهم به صخبٌ عالٍ وضوضاء
وآخرون كسالى فى أماكنهم ... كأنهم فى رمال الشط أنضاء
تحلَّلوا من قيود العيش وانطلقوا
لا هُمْ أسارى ولا فيهم أرقّاء
تنزّل الدهر يوماً عن مشيئته ... وحكمه فلهم فى الدهر ما شاءوا
هُمُ الورى قبل إفساد الزمان لهم ... وقبل أن تتحدى الحب بغضاء
لم يُخلقوا وبهم من نفسهم عِلَلٌ
لكن حضارة هذا العالم الداء
ضاقت نفوس بأحقاد وقد سلمت ... لو أنها كسماء البحر روحاء

ما لى بهم أنتِ لى الدنيا بأجمعها
وما وعتْ ولقلبى منكِ إغناء
لو كان لى أبدٌ ما زاد عن سنةٍ ... ومُدّة الحلم بالجفنين إغفاء
أرنو إليك وبى خوفٌ يساورنى ... وأنثنى ولطرفى عنكِ إغضاء
إذا نطقتُ فما بالقول منتفَع ... وإن سكت فإن الصمت إمشاء
أحباك القلب حباً ما هتكت له ... سرّا ولا مستطاعٌ فيه إخفاء
وأيّما خطرة فالريح ناقلةٌ ... والروض حاكٍ لها والأيك أصداء
يا ليل! مَنْ علّم الأطيار قصتنا ... وكيف تدرى الصَّبا أنا أحباء

لما أفقْنا رأينا الشمس مائلة ... إلى الوداع وما للبين إرجاء
شابت ذوائب وانحلت غدائرها ... شهباء فى ساعة التوديع صفراء
مشى لها شفقٌ دامٍ نخضّبها ... كأنه فى حواشى الشعر حِنّاء
يا من تنفس حرّ الوجد فى عنق ... كما تنفّسُ فى الأقداح صهباء
ومن تنفّستُ حر الوجد فى فمه ... فما ارتويتُ وهذا الرىّ إظماء
ما أنتَ عن خاطرى بالبعد مبتعد
ولن تواريك عن عينىّ ظلماء

ناجى

السعادة

للمرحوم أبي القاسم الشابي

ترجو السعادة يا قلبى ! ولو وجدت
فى الكون لم يشتعل حزن ولا ألم
ولا استحالت حياة الناس أجمعها ... وزلزلت هاته الأكوان والنظم
فما السعادة فى الدنيا سوى حلم ... ناء تضحى له أيامها الأمم
ناجت به الناس أفهام معربدة ... لما تغشتهم الأحلام والظلم
فهب كل يناديه وينشده ... كأنما الناس ما ناموا وما حلموا

* * *

خذ الحياة كما جاءتك مبتسماً ... فى كفها الغار أم فى كفها العدم
وارقص على الورد والأشواك متئداً ... غنت لك الطير أو غنت لك الرجم
واعمل كما تأمر الدنيا بلا مضض ... والجم شعورك فيها ! إنها صنم
فمن تألم لم ترحم مضاضته ... ومن تجلد لم تهزأ به القسم
هذى سعادة دنيانا ! فكن رجلاً ... إن شئتها — أبد الآباد يبتسم !
وإن أردت قضاء العيش فى دعة ... شعرية لا يغشى صفوها ندم
فاترك إلى الناس دنياهم وضجتهم ... وما بنوا لنظام العيش أو رسموا
واجعل حياتك دوحاً مزهراً نضراً ... فى عزلة الغاب ينمو ثم ينعدم
واجعل لياليك أحلاماً مغردة ... إن الحياة وما تدوى به حلم !

أبو القاسم الشابي

على الشاطىء

حمام الشمس

للأستاذ إدوار حنا سعد

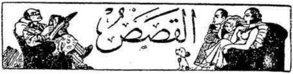
قف بشط الجمال واحسد رماله ... عانقت جسمها وضمت ظلاله
إنها كالربيع حسناً ومعنى ... شابهت سره وحاكت جماله
غادرت ثوبها ولم تبق منه ... فوق بعض الأعطاف غير فضاله
وتعرت كالورد حان قطافاً ... أو جنى الروض إذ يوافى كماله
وتهادت بالشط تصلى العذارى ... غيرة مرة وتصمى رجاله

سكر الموج من صبا وجمال ... فلوى قيده وفك عقاله
يتبارى للشط سبقاً إليها ... وهى تلهو لم تحسن استقباله
لاطم بعضه من الشوق بعضاً ... صاخب فى هديره إعواله
كلما شارف الحبيب وأوفى ... فى حماه الرحيب يلقى رحاله
خانه صبره وخارت قواه ... فتولى مجرجراً أذياله
لست أدرى أمن ونى وتوان ... أم لفرط التقديس هاب وصاله

قد أطلت التحديق فى حسنك الما ... رى كما حاط ناحت تمثاله
وبكرهى أهواك هل فى فؤادى ... فلذة تجهل الهوى ونصاله ؟
فاعذرينى فقد أضعت شبابى ... شاعراً يتبع المنى وخياله
همت والقلب بالجمال نغنى ... وعرفنا الغرام فى كل حاله
نشمنا صدوده ووصاله ... ومللنا وفاءه ومطاله
ويح قلبى إذا صبوت تجنى ... وإذا ما اعتزلت مل اعتزاله
حينما هزه الصبا وجمال ... عبقرى لم نرتقب أمثاله
سكنت نفسه وقرت مناه ... وجفا نسكه وعاف احتماله

هاك صدرى أحنى من الرمل صدرى ... آه لو ذقت صفوه وخلاله
إن فيه حرارة الشمس والرمـ ... ـل وليلا مغرداً وهلاله

(الأسكندرية) ادوار حنا سعد



قصة مصرية :

حزن وسرور ...

للأستاذ نجيب محفوظ

كانت أسرة هانئة البال ، يرعاها فتى فى الخامسة والثلاثين، وتتعهدها بالعناية والتدبير أم حنون ، وتعيش فى كنفها أخت فى مراق الشباب الأولى . لم تكن من الثروة فى شيء ، فمرتب الفتى لا يجاوز الخمسة عشر جنيهاً وهو كل مالها . ولا كانت غفل الزمان عنها ، فقد فقدت راعيها الأول الأب والابن فى المراحل الأولى من التعليم الثانوى وأخته فى مدارج الطفولة ، فلاقت متاعب شديدة من الحاجة والضنك قبل أن بلغت بر الاستقرار والأمان . إنها كانت تعودت الشدة والبؤس على عهد الكفاح الذى أعقب وفاة الأب ، فانتقلت بتوظيف الابن إلى حال من اليسر لم تكن — على بساطتها — تحلم بمثلها ، وصارت أسرة هانئة البال ، ودام لها هذا الحال خمسة عشر عاماً ، حتى آذنت مظاهرها بما هى مقبلة عليه حتما من التغيير والتطور وفق ما تقتضيه طبائع الأشياء وسنن الحياة . ففتاها بلغ حداً من العزوبة لا يجوز أن يتعداه ، وإحسان أوفت على العشرين ، فبات زواجها ينتظر اليوم أو غداً ، وبدت الأم فى شيخوختها تحث الخطو فى مفترق الطرق. حقاً إن كل شيء ينذر بالتغيير وغداً تنقسم هذه الخلية الواحدة فتصير خليتين ، وتأخذ كلتاها نصيبها المستقل من الحياة والنمو المتكاثر . وجاء الغد ولكن بما لم يكن فى حسبان . فقدت هذه الأسرة الشاخصة إلى الأفق بعين الرجاء عاهلها الأوحد ... ذهب الرجل بأسرع مما يخطر على بال فى عزة الشباب وعنفوانه . فما كان إلا أن وجد دملا فى ساقه اليسرى ، وأهمله أياماً فبرز وغلظ ثم عالجه بإبرة محماة ففتحه ؛ ولكنه لم يوله ما هو أهل له من العناية والتنظيف ، فورم مرة أخرى وامتد ورمه شيئاً فشيئاً ، وسرى الألم فى الساق كلها ، فمضى يتصبر على أمل أن تزول تلك الأعراض وحدها ، حتى أقعده الألم عن الحركة ، واستدعى عند ذلك الطبيب فأشار فى الحال ببتر الساق ... وحمل إلى المستشفى وأجريت العملية فانتهت بغير السلامة ، وأسلم الروح ومضى بصحته ورجولته ونفعه . وأوشكت الأم العجوز أن تجن . كانت تطمع أن يواريها فى التراب بعد عمر طويل ، فوارته فى التراب هى بعد عمر قصير . وكانت ترجو أن تودعه وهو سعيد بأسرته الجديدة ، فودعها وقد تركها للوحدة والقنوط . أما إحسان ، فكانت أشقى أخت وأشقى فتاة ، فقدت — أو هكذا خالت — الأمل الحاضر والأمل المتخايل فى غضون المستقبل . وترك الرجل معاشاً جنيهين وربع جنيه ، ولكنه أورثهما مدخره مائة وخمسين جنيهاً التى كان أعدها لنفقات زواج إحسان وزواجه هو فيما بعد . ولبست الأسرة الحداد وباتت فى حزن أليم . إلا أن الله الذى لا يرد قضاؤه خففه باللطف والرحمة . فقد كان لإحسان عمة عاقر على جانب من الثروة فآوت الشابة وأمها ، وكانت إحسان فتاة عليلة وقعت منذ الصغر فريسة لمرض عصبى طال أمده فاستفحل بالإهمال — إذ كان أخوها كأمه ضعيف ثقة بالطب — وكانت إلى هذا حولاء ، فاختفى حسنها وراء إهاب شاحب وجسم هزيل وحول ذميم : وربما أدرك الناظر إليها أن شبابها غير عاطل من جمال ، ولكنه جمال مختنق تأبى عليه آثار العلة والحول أن يترعرع ويزدهر ، فجسمها لطيف التكوين ، إلا أنه ذابل ، ووجهها مستدير حسن القسمات ، إلا أنه مصفر عليل ، وعيناها صافيتان واسعتان ، ولكن قبحهما الحول وأخفى نظرتهما الحنون . ثم جاء موت أخيها علة على علة فانهارت قواها وغلبها الحزن ، فازدادت ضعفاً على ضعف وشحوباً على شحوب ، وأوفت من مرضها على نهاية خطيرة . ذلك كانت حالها حين فتحت لها صدرها عمتها ، ثم أخذ كل شيء يتغير من بعد ذلك ، بدأ هذا التغير فى الأشهر الأولى التى أعقبت الوفاة ، ثم صار طابع الحياة الجديدة وأملها الموموق ، ووجدت الفتاة عناية لم تكن تجدها من قبل ، فأقبل آلها يدعون لها ويقولون لأمها « ربنا يفرحك بإحسان » ، وغمروها بالعطف والحب والدعاء ، ومنحتها أمها جامع قلبها وكان

لها نصفه أو أقل قليلا . أما الذي فازت به حقاً ، وكان فوزها به عظيما ، لأنه بعثها بعثاً جديداً ، فهو قلب عمتها ، تلك المرأة الطيبة المحبة التي تتفجر نفسها رحمة وحناناً ، أحبتها كما كانت تحبها ، وأحبتها كما كانت تحب أخاها ، وأحبتها كما كانت تود وتتمنى أن تحب أمثالها من الذرية التي حرمتها ، فمن آى هذا الحب أن قبلتها يوماً وقالت لها :

— لا تستسلمي للحزن رحمة بنفسك ورحمة بأمك المحزونة

وقالت لها مرة أخرى وقد آلمها ما تراه في وجهها من الشحوب والذبول

— لا يرتاح لي بال إذا تركت هذا المرض يهتصر شبابك الغض ...

ومضت بها إلى الطبيب ، وتفحصها الرجل بعناية ووصف لها حقناً ونصحها بتبديل الهواء ، فأحضرت المرأة الحقن ، ثم شدوا الرحال جميعاً إلى بلبيس — بلدة العمة — وهناك بين أحضان الريف الحنون وهدوئه الشامل في الهواء النقي والشمس الصاحية سارع إليها البرء ومشى في أعصابها الشفاء ، فانتهت النوبات التي كانت تعتريها ، ونجت مما كان يشق جنانها من القلق والمخاوف ، وسرعان ما امتلأ جسمها الهزيل واعتدل قدها وجرى في وجهها ماء الشباب ورونق الصبا وجاذبية الأنوثة . وسرت العمة بما رأت ، وكأنها بستاني يجني ما غرست يداه لأول مرة ، وأطمعها هذا الظفر بالمزيد ، فحدثت نفسها : « آه لو يذهب هذا الحول ... فأي عينين تكونان ! » ولكن ما الذي يمنع هذه الأمنية من أن تتحقق ... لقد سمعت أن من أطباء العيون من يعالج الحول ويرد البصر سالماً . ولم يقعدها التردد فقفلت هي وأسرتها الجديدة إلى القاهرة وقصدت إلى كبير من أطباء العيون فأملها خيراً وأجرى العملية فنجحت نجاحاً باهراً فاق كل تقدير . واستوت عينان فطرتا على الميل والانحراف ، وأخلى الحول مكانه لحور فاتن ، ونظرة حلوة تقطر ملاحة ، ونظرت إحسان في المرآة فرأت وجهاً جميلا لا عهد لها به ، يحسد على ما حبته الطبيعة من الحسن والجمال ، فانبهرت الفتاة ، واستخفها السرور ، وتناست أحزان الماضي وهمومه ، وتفتح صدرها للحياة كما تتفتح الزهرة عانقها أول شعاع لشمس الربيع ، وابتاعت لها عمتها أبهى حلل وأليقها بجسمها اللدن ، فتبدت في ثوبها الأسود النفيس في بهاء العاج ورونقه ، وأبرزتها من خدرها فقدمتها إلى أبهاء الاستقبال في بيوت المعارف والجيران ، وكانت تقول لها وهي ترمقها بعين الحب والإعجاب :

— لكم يشرح صدري ويسر قلبي إذا جاءنا العروس المدخر غداً ... !

ولم يتثاقل هذا الغد ولا تأخر العريس طويلا ، فجاء يطلب يدها البضة ، ولما علمت الأم سر فؤادها المكلوم ، ودارت دمعة ترقرقت في عينيها حين ذكرت ما ادخره الفقيد من مال لهذا الزواج ولزواجه هو أيضاً

وباتت إحسان تلك الليلة في سرور عظيم بل كانت أسعد لياليها وعندما رنق النوم بجفنيها في ساعة متأخرة ، رأت فيما يرى النائم حلماً مؤثراً ، رأت أنها عادت إلى الشقة التي كانوا يقيمون بها قبل وفاة شقيقها ، وأنها في حجرته بالذات وعلى فراشه ، ورأت في وسط الحجرة نعشاً ملفوفاً في الحرير الأبيض ، يجلس على رأسه شيخ كبير في عباءة سوداء وعمامة بيضاء ، وكانت تبكي وتكابد ضيقاً يكاد أن ينشق به صدرها ، وكأنما الشيخ رق لها فوجه إليها الخطاب متسائلا :

— لماذا تبكين ؟

فقالت وقد أثر فيها عطفه فانهلت مدامعها :

— أخي ... إني أبكي أخي ...

فأومأ الشيخ إلى النعش وقال بهدوء :

— إنه يرقد ها هنا

فحنت رأسها حتى تساقط الدمع على حجرها وقالت بصوت تخنقه العبرات :

— أعلم ذلك وا أسفاه

فسألها مبتسماً :

— أتحبين أن يعود إليك ؟

فنظرت إليه بعينين لا تصدقان وقد كفت عن البكاء وتساءلت :

— أتستطيع ذلك حقاً ؟

— نعم بغير شك

فقالت بلهفة ورجاء :

— رد إليه الحياة ... أعده إلينا

ولم تمالك نفسها ، فنهضت قائمة يلعب بفؤادها الأمل ؛ فقال الشيخ بهدوئه الذى لا يفارقه :

— ليس الأمر باليسر الذى تتصورين ، فلا بد من ثمن يؤدى

— أى ثمن ... وهل يغلو ثمن لقاء أن يعود أخى ؟ !

فهز الرجل رأسه المعمم وقال :

— إذا رد إلى الحياة ، وهذا على هين ، فستردين أنت إلى حالتك الأولى ، يعاودك المرض ويعتريك الذبول والاصفرار والحول ، ولا يلبث حتى يسترد ماله فتفقدى خطيبك !

وعلاها وجوم ، وشعرت بثقل الكابوس على صدرها ، فرشح جبينها عرقاً وزاغ بصرها . فابتسم الشيخ وسألها كالمتهكم :

— إيه ... هل أعيده إليك حقاً ؟

رباه ... ما ذا تقول ؟ هل يمكن أن تنكص عن الجواب ؟

وقالت وهى تزفر :

— نعم أعده

وتغير وجه الرجل ، فلاح فى محياه الجد والاهتمام ، ووثب قائماً ، ثم تحول إلى النعش يفك أربطته ويرفع غطاءه دون تردد وألقت الفتاة ببصرها إلى النعش لتستقبل العائد العزيز... ولكن اشتدت وطأة الكابوس وثقله ، ورأت نفسها تتغير فى مثل لمح البصر فترد إلى حالتها الأولى ، فاستردت صورتها العليلة وبشرتها الشاحبة وعينيها القبيحتين ، وغابت كل المسرات : فلا نضارة ولا شباب ولا مال ولا زواج ... وشعرت بإعياء وخور فلم تعد قدماها بقادرتين على أن تحملاها ، فسقطت جاثية على ركبتيها ، وعيناها لا تتحولان عن النعش ... ثم غلبها البكاء ، واستيقظت عند ذاك ، فرفعت رأسها عن الوسادة ، وتحسست يداها وجهها والفراش ، لتتأكد من أنها يقظة ، وأن ما كانت تكابده حلماً من الأحلام ، وكان قلبها يدق بعنف اضطرب معه ما فوق القلب من قميصها الأبيض ، ثم أسلمت رأسها مرة أخرى إلى الوسادة وهى تتنهد تنهداً عميقاً ، وما لبثت أن أجهشت فى البكاء ، لا لأنها مسخت فردت إلى حالتها الأولى ، ولكن لأنها ذكرت أخاها الراحل ، فثارت كوامن أشجانها ...

نجيب محفوظ



أربعة كتب

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

الحياة الروحية فى الاسلام — الملامتية والصوفية وأهل الفتوة — نظرات فى الحياة والمجتمع — الانكليز كما عرفتهم ...

١ — الحياة الروحية فى الإسلام

[للدكتور محمد مصطفى حلمى]

فى هذه الفترة المادية التى نعيش فيها على سمع التاريخ الحديث وبصره ، وفى هذا الجو المختنق بأبخرة المادة الكثيفة التى تكاد تغشى القلوب . وفى وسط هذا الصراع الجبار بين الرغبات المادية الجامحة نقرأ هذا الكتاب الذى تجد فيه النفس اطمئنانها إلى حياة الروح فى الإسلام .

ويظهر أن المؤلف نفسه — على غير معرفة لنا به — فيه نزعة من هذه الحياة الروحية النبيلة التى تعلو عن المادة ؛ ويتبين ذلك من سطور كتابه ومن المقدمة الواضحة التى قدم بها بين يدى الكتاب . فهو لا يرمى إلى كشف النقاب عن الحياة الروحية فحسب ، ولكنه يرمى أن يكون وراء الكشف عنها « ما يعين على كبح جماح الشهوة ، وكسر حدة المادة ، وتمكين الخلف من الاستجابة لهذا الدعاء الروحى الصادق الذى ردده السلف » .

وواضح من هذا الكلام أن للمؤلف غرضين : الغرض العلمى الذى كان موفقاً فى إبرازه والنهج به على أقوم سبيل ؛ والغرض الخلق ، وهو غرض نبيل صرح به فى المقدمة فكشف لنا عن روح نبيل فى تناول الموضوعات العلمية .

والحق أن العلم وحده لا ينفع ما لم يعن على إشاعة الخلق الجميل . ولا تكفى دراسة النظريات وتحديد المنهج والمعرفة بأصول البحث ما لم يكن هناك هدف سام من الأخلاق . وهنا تظهر القيمة العملية لدراسة العلوم .

ويرد المؤلف بدء الحياة الروحية فى الإسلام إلى تحنث محمد عليه السلام فى غار حراء قبل أن ينزل عليه الوحى — أى قبيل الإسلام — وكأنه بذلك يريد أن يجعل بزور التصوف والروحانية الإسلامية نابتة فى قلب الجزيرة العربية وفى صميم كهوفها وأغوارها . ولست أرى بأساً أن تختلف مصادر الحياة الروحية فى الإسلام ما دامت الأديان كلها تهدف إلى غرض واحد هو صفاء الروح .

وفى الكتاب فصول عن النساك والزهاد والعباد والتصوف ونشأته والنزاع بين الصوفية والفقهاء ، والغزالى وطريق المعرفة عنده ، وما إلى ذلك من الأبحاث التى تدل على أن المؤلف دارس لموضوع الروحية الإسلامية دراسة سعة وشمول .

وأسلوب الكتاب واضح ينساب فى سهولة ويسر ، وبذلك حقق غرض الجمعية الفلسفية المصرية من تبسيط هذه الموضوعات لجمهور القارئين ، إلا أن فيه تكراراً فى بعض المواطن وخاصة فى الفصل الثانى من الكتاب . وعندى أن التكرار لا يملح من كل كاتب ، فخير للمؤلف الفاضل لو أنه استقل بأسلوب يكون هو صاحبه ولا يكون فيه من المقلدين .

٢ — الملامتية والصوفية وأهل الفتوة

[للدكتور أبو العلا عفيفى]

وهذا كتاب آخر من كتب الجمعية الفلسفية المصرية التى يشرف على إصدارها الأستاذان الجليلان الدكتور على عبد الواحد وافى والدكتور عثمان أمين ؛ وهما من أكثر رجالنا نشاطاً فى التأليف وأشدهم انكباباً على العلم . والكتاب لأستاذنا الدكتور أبو العلا عفيفى أستاذ الفلسفة بجامعة فاروق الأول . وهو من سبيل الكتاب الأول ومن بابه : فلحياة الروح فيه مجال كبير . وقد وفق المؤلف فيه إلى حد كبير . فقد أزاح الستار عن طريق « الملامتية وأهل الفتوة » ورجع فى ذلك إلى طائفة من كتب التصوف بعضها بالعربية وبعضها باللغات الأجنبية .

والكتاب قسمان : قسم عن مذهب الملامتية ونشأته فى الإسلام والصلة بين تعاليم الملامتية وتعاليم الصوفية وأهل الفتوة . والقسم الثانى نص رسالة الملامتية التى ألفها أبو عبد الرحمن السلمى من العارفين بأسرارهم .

وفى القسم الأول تحقيق كثير لا يصدر إلا من رجل كالدكتور أبى العلا عفيفى له فى البحث العلمى مقام محمود . والحق أنه وفَّى الكلام عن هذا المذهب التصوفى توفية منعه تواضعه من أن يعلى من قيمتها . فقد أشار فى المقدمة إلى أن الصورة العامة التى صور بها هذا المذهب «قديعوزهاالكثير من التفاصيل »

وخير فصول الكتاب هو الفصل الخاص بالتحليل النقدى لأصول الملامتية . فقد تكلم عن فلسفتهم فى النفس ومحاربتهم للرياء ، واتهام النفس ولومها ، والرياء فى الأعمال والأحوال والعلم . وهو كلام يدل على فهم صحيح للمذهب وطول تتبع له ووصول إلى أعماقه .

وإذا كان المستشرق الأستاذ ريشارد فون هارتمان قد سبق الدكتور عفيفى إلى البحث فى رسالة السلمى نفسها فإن أستاذنا المصرى قد تناول فى رسالته القيمة المذهب الملامتى نفسه والفرق بينه وبين تعاليم الصوفية ، وتاريخ هذه الفرقة ونشأتها.

وهى أبحاث تدل على سعة فى العلم وعلى صبر فى البحث وعلى قراءة كثيرة لكتب التصوف والمذاهب التى خرج منها المؤلف بهذا المحصول العظيم .

— ٣ —

نظرات في الحياة و المجتمع

[للأستاذ على أدهم]

مؤلف هذا الكتاب أديب يمتاز بمزايا كثيرة لابد منها لمن يريد أن يكون فى عالم الأدب أصيلا لامتبعاً . فهو يقرأ كثيراً فى الأدب العربى والغربى؛ وهو يهضم قراءاته ويحسن هضمها لأن معدته الأدبية صحيحة موفورة العافية ؛ وهو قادر على معالجة الأدب المقارن بحسن إدراك وصحة فهم وقوة أسلوب .

أما إدراكه فيظهر من رءوس الموضوعات التى يتناولها والتى يحسن الكلام فيها فينتقل بك من فكر إلى فكر ، ومن موضوع إلى موضوع حتى يأتى على البحث إلى آخره ولا يدع فى نفسك شهوة لاستزادة.

وأما أسلوبه ففيه من القوة

مات الإمام المراغى

فى ليلة الأربعاء الماضى استعز الله بالإمام الأكبر الأستاذ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، فكان نعيه الفاجئ حدثاً بارزاً فى الأحداث العالية هفت له القلوب جزعاً ، والتاعت له النفوس حسرة . والأسى على فقد الأستاذ المراغى عِدْل ما يعرفه العالم الإسلامى عنه من رسوخ القدم فى العلم ، وعلو المكانة فى الأدب ، وثقوب الفكر فى الإصلاح ، ونفوذ الكلمة فى الدولة .

والحق أن المراغى كان عالم جيله إذا أردنا من العالم الدينى أن يكون علياً بأحوال العصر ، خبيراً بسير الزمن ، بصيراً بطبائع الناس ، يوفق بين الدين والعلم فى قصد ، ويجمع بين الشريعة والمدنية فى حكمة . وقد هيأه لهذه المزايا بعد الاستعداد الطبيعى فيه عوامل اجتماعية أهمها اتصاله المباشر بالموظفين الإنجليز فى السودان أيام كان صاحب القضاء فيه . والموظفون الإنجليز فى مصر والسودان كانوا الصورة الحقيقية للمدنية الغربية فى سمو الخلق وحسن النظام وحرية الفكر وسداد المنهج ، كما كانوا فى الإدارة والسياسة الكمال الذى يظهر لك النقص واضحاً فى شتى النواحى الاجتماعية المصرية؛ فكان من الطبيعى أن يطمح إلى هذا الكمال من طريق الإصلاح الدينى والاجتماعى بحكم منصبه . كما فعل الإمام محمد عبده حين اتصل بالفرنسيين فى المنفى وبالإنجليز بعد الاحتلال

ولقد كان موقفه فى الإصلاح الدينى من شيخه الإمام محمد عبده ، كموقف اسماعيل فى الإصلاح المدنى من جده محمد على : كان موقف المتبع من المبتدع ، والمقلد من المجتهد ، والحائر المتردد من الزميع المصمم .

وكان الظن بالفقيد الكريم وقد ورث أكثر خصائص الأستاذ الإمام أن يؤدى رسالة الإصلاح على الوجه الذى يرتضيه العلم ، ويقتضيه العصر ، ويرتجيه الناس ؛ ولكن الأسباب المعوقة من مهاواة السياسة ، ومصانعة المعارضة ، ومماطلة الحزم ، واضطراب السلام فى الخارج ، وانقطاع الوئام فى الداخل ، حالت بين الشيخ وبين ما يريد حتى أتاه اليقين وهو على شك من استعداد النفوس لفكرة الإصلاح .

تغمده الله برحمته ، وجزاه أحسن الجزاء على حسن نيته ، وأخلف بالخير على أسرته وأمته .

ما يؤدى به الأغراض أحسن أداء ، فلا تحس ضعفاً هنا ولا ليناً هناك . ولكنك ترى الكلام مستوياً مع النرض علواً واتساقاً.

وتقرأ الموضوع الواحد لعلي أدهم فتراه طائفاً معك من أبي تمام إلى المتنبي إلى فرويد من غير أن تحس تكلفاً فى الانتقال ؛ لأنه يصدر عن طبع وإحاطة .

ويغلب على كتابته ناحية الفكر والفلسفة . فهو أديب الفكرة لا أديب العبارة . وإن كانت عبارته فى مكانها العلي من لغة العرب لأنه يقرأ كما قلت لك كثيراً ويُفيد مما قرأ كثيراً

وفى موضوعات على أدهم لذة ؛ لأنه يعرف كيف يختارها ويعرف كيف يعرضها ؛ ويعرف فى النهاية كيف يقنعك برأيه ويكسبك إلى صفه . وتحس وأنت تقرؤه أنك تقرأ أفكار الحكماء مجموعة فى كتاب ومضمومة فى إهاب ، وهو مع ذلك متواضع ، لا يدعى أنه من العلماء المختصين ولا من الحكماء الموهوبين « ولكنى أحب أن أسير فى آثار هؤلاء الهواة الذين راقهم أن يعرفوا أشياءعن الطبيعة الإنسانية، وشاقهم حب التطلع والاستبانة»

وهو فى النهاية ليس خيالياً ولا « يوتوبياً » . ولكنه واقعى يصف الواقع ويعلل له .

٤ — الانكليز كما عرفتهم :

[للاستاذ أمين المميز من رجال السلك السياسى العراقي]

تفضل الأستاذ الكبير الزيات فأعارنى هذا الكتاب لقراءته والحديث عنه . ثم تفضل المؤلف الفاضل نفسه فأهدى إلى نسخة منه عن طريق صديقنا الأديب الوفى السيد محيي الدين رضا ، فأتيحت لى بذلك فرصتان لقراءة هذا الكتاب الطريف المفيدالممتع

ولقد عشت فى انجلترة حقبة من الزمان ، فما أزعم لنفسى أننى عرفت من أحوال القوم وأمورهم وألوان الحياة عندهم ما عرفته من هذا الكتاب

وكان مصدر المؤلف فى كتابه شيئين : التجربة والقراءة فقد عاش فى انجلترة مدة وخالط أوساطها الراقية بحكم منصبه ، كما خالط أخلاطاً من القوم دون ذلك بحكم نيته فى التأليف . وقرأ كثيراً عن الإنجليز وبلادهم وتاريخهم وعاداتهم مما كتبه الإنجليز أنفسهم ، أو مما كتبه عنه غيرهم

ومن هنا كانت مراجع الكتاب كثيرة تبلغ بضع عشرات من الكتب لبضع عشرات من الكتاب أمثال بايكر ورادلى وهاملتون وروم لانداو ومورتون وغيرهم

وفى الكتاب فصول عن الرجل الإنجليزى والمرأة الإنجليزية وحياة الإنجليز السياسية والاجتماعية ، فإذا شئت أن تعرف شيئاً عن الدستور الإنجليزى والوزارة والميزانية ووزارة الخارجية ومجلس العموم ومجلس الأعيان والأحزاب الإنجليزية والامبراطورية والدومنيون ، فارجع إلى الفصل الثالث

وإذا شئت أن تعرف شيئاً عن نظام الطبقات فى انجلترة والثروة والمهرجانات العامة وقصور العائلة المالكة والأعياد الدينية والوطنية والنادى وحياة الشوارع والملبس وآداب المعاشرة وغيرها فاقرأ الفصل الرابع

وليس الكتاب رحلة عابرة فى بلاد الإنجليز ، ولكنه دراسات علمية تاريخية بذل المؤلف فيها كثيراً من الجهد فى المطالعة والقراءة والرجوع إلى المصادر ، كما بذل كثيراً من الدقة فى الملاحظة والمشاهدة والمعاشرة ، حتى خرج الكتاب مرجعاً من أوفى المراجع العربية عن حياة الإنكليز وتاريخهم

وإذا كان سبيل التقارب بين الشعوب هو حسن التفاهم بينها ، فإن ذلك لا يكون إلا عن فهمها ، فمتى صح الفهم صح التفاهم ولا شك أن كتاب الأستاذ أمين المميز هو خطوة فسيحة موفقة فى سبيل فهم الإنجليز ، وبالتالى فى سبيل التفاهم معهم فأهنئه وأشكره على هديته ، وأرجو له التوفيق فى إخراج الجزء الثانى من كتابه الذى وعد به فى هذا الجزء النفيس

محمد عبد الغنى حسن